٢١٤
ق.ف

طريق الهجرتين وباب السعادتين (فصل طبقات المكلفين في الآخرة)، تأليف ابن قيم الجوزية، محمد ابن ابي بكر - ٧٥١هـ. بخط عبد الرحمن بن حمود سنة ١٢٥٤هـ.

٤٨ ق ٢١ س ٥ر٢١×٥ر١٥سم

نسخة حسنة، خطها نسخ معتاد، طبع.

الاعلام ٦: ٢٨٠، الازهرية ٣: ٦٠٠ ١٧٢١

ا- الشعائر والتقاليد والاخلاق الاسلامية

أ- المؤلف ب- الناسخ جـ- تاريخ النسخ.

كتاب طبقات المكلفين في الاخرة للشيخ
الامام العلامة الحبر البحر الفهامة
ترجمان القرآن ناصر السنة المحمدية
علم الحفاظ وحيد المفسرين شمس
الدين ابي عبد الله محمد ابن ابي
بكر الزرعي الحنبلي الشهير
بابن قيم
الجوزية قدس
الله روحه
ونور
ضر
يحه

من ملك كاتبه عبد الرحمن
ابن محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ الامام العالم العلامة شمس الدين ابو عبد الله محمد ابن ابي بكر المعروف
بابن قيم الجوزية تغمده الله برحمته **فصل** في مراتب المكلفين في الدار الاخرة وطبقا
تهم فيها **الطبقة الاولى** وهي العليا على الاطلاق مرتبة الرسالة فاكرم الخلق
على الله واخصهم بالزلفى لديه رسله وهم المصطفون من عباده الذين سلم عليهم في
العالمين كما قال تعالى وسلام على المرسلين وقال سلام على نوح في العالمين سلام
على ابراهيم كذلك نجزي المحسنين سلام على الياسين وقال تعالى قل الحمد لله وسلام
على عباده الذين اصطفى وجملة السلام هنا يحتمل ان تكون داخلة في خبر
القول فتكون معطوفة على الجملة الخبرية وهي الحمد لله ويكون الامر بالقول
متناولا للجملتين معا وعلى هذا فيكون الوقف على الجملة الاخيرة ويكون
محلها النصب محكية بالقول ويحتمل ان تكون جملة مستانفة مستقلة معطوفة
على جملة الطلب وعلى هذا فلا محل لها من الاعراب وهذا التقدير ارجح
وعليه يكون السلام من الله عليهم وهو المطابق لما تقدم من سلامه سبحانه
على رسله وعلى التقدير الاول يكون امرا بالسلام عليهم ولكن يقال على هذا
كيف يعطف الخبر على الطلب مع تنافر ما بينهما فلا يحسن ان تقول قم وذهب زيد ولا
اخرج وقعد عمرو ويجاب عن هذا بان جملة الطلب قد حكيت بجملة خبرية
ومثل هذا لا يمتنع العطف فيه بالخبر على الجملة الطلبية لعدم تنافر الكلام
وتباينه ونظير هذا قوله قل انظروا ماذا في السموات والارض وما تغني الا
يات والنذر عن قوم لا يؤمنون فقوله وما تغني الايات ليس معطوفا على
المحكي بالقول وهو انظروا بل معطوف على الجملة الكبرى على ان عطف الخبر على
الطلب كثير كقوله تعالى قل رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون

فصل

الطبقة الاول

وقوله

تجزئه

وقوله وقل رب اغفر وارحم وانت خير الراحمين والمقصود على هذا
القول يكون الله سبحانه قد سلم على المصطفين من عباده والرسل افضلهم وقد
اخبر سبحانه انه اخلصهم بخالصة ذكرى الدار وانهم عنده من المصطفين الاخيار
ويكفي في فضلهم وشرفهم ان الله سبحانه اختصهم بوحيه وجعلهم امناء على رسالته
ووسائط بينه وبين عباده وخصهم بانواع كرامته فمنهم من اتخذه خليلا ومنهم
من كلمه تكليما ومنهم من رفعه على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده وصولا
اليه الا من طريقهم ولا دخولا الى جنته الا خلفهم ولا يكرم احدا منهم بكرامة
الا على ايديهم فهم اقرب الخلق اليه وسيلة وارفعهم عنده درجة واحبهم اليه
واكرمهم عليه وبالجملة فخير الدنيا والاخرة انما ناله العباد على ايديهم وبهم
عرف الله وبهم عبد واطيع وبهم حصلت محابه تعالى في الارض واعلاهم منزلة
اولوا العزم منهم المذكورون في قوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
والذي اوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى وقوله تعالى واذ اخذنا
من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم
وهؤلاء هم الطبقة العليا من الخلائق وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها
الى خاتمهم وافضلهم **الطبقة الثانية** من عداهم من الرسل على مراتبهم من
تفضيل الله بعضهم على بعض **الطبقة الثالثة** الانبيا الذين لم يرسلوا
الى اممهم وانما كانت لهم النبوة دون الرسالة واختصوا عن الامة بايحا
الله اليهم وارساله ملائكته اليهم واختصت الرسل عنهم بارسالهم الى الامة بدعوتهم
الى الله بشرعه وامره واشتركوا في الوحي ونزول الملائكة عليهم **الطبقة
الرابعة** ورثة الرسل وخلفاؤهم في اممهم وهم القائمون بما بعثوا به علما
وعملا ودعوة للخلق الى الله على طريقهم ومنهاجهم وهذه افضل مراتب الخلق

الطبقة الثانية

الطبقة الرابعة

بعد الرسالة والنبوة وهي مرتبة الصديقية ولهذا قرنها الله في كتابه بالانبيا فقال
ومن يطع الله والرسول فاولئك مع الذين انعم الله عليهم من النبيين والصديقين
والشهدا والصالحين وحسن اولئك رفيقا فجعل درجة الصديقية تلي درجة
النبوة وهولا هم الربانيون وهم الراسخون في العلم وهم الوسايط بين الرسول
صلى الله عليه وسلم وامته فهم خلفاوه واولياه وحزبه وخاصته وحملة دينه
وهم المضمون لهم انهم لا يزالون على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم
حتى ياتي امر الله وهم على ذلك وقال تعالى والذين امنوا بالله ورسله اولئك
هم الصديقون والشهدا عند ربهم لهم اجرهم ونورهم وقد قيل ان الوقف
على قوله هم الصديقون ثم يبتدي والشهدا عند ربهم لهم اجرهم فيكون
الكلام جملتين اخبر في احدهما عن المومنين بالله ورسله انهم هم الصديقون
والايمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة الى الله سبحانه بالتعليم والصبر عليه
واخبر في الثانية ان الشهدا عند ربهم لهم اجرهم ونورهم ومرتبة الصديقين
فوق مرتبة الشهدا ولهذا قدمهم عليهم في الايتين هنا وفي سورة النساء وهكذا
جاء ذكرهم مقدما على الشهدا في كلام النبي صلى الله عليه وسلم في قوله اثبت احد فانما
عليك نبي وصديق وشهيدان ولهذا كان نعت الصديقية وصفا لافضل
الخلق بعد الانبيا والمرسلين وهو ابو بكر الصديق رضي الله عنه ولو كان بعد النبوة
درجة افضل من الصديقية لكانت نعتا له رضي الله عنه وقيل ان الكلام كله جملة وا
حدة واخبر عن المومنين بانهم هم الصديقون والشهدا عند ربهم وعلى هذا
فالشهدا هم الذين استشهدهم الله على الناس يوم القيمة وهو قوله لتكونوا
شهدا وهم المومنون فوصفهم بانهم صديقون في الدنيا شهدا على الناس يوم
القيمة ويكون الشهدا وصفا لجملة المومنين الصديقين وقيل الشهدا هم

الذين



الذين قتلوا في سبيل الله وعلى هذا القول يترجح ان يكون الكلام جملتين
ويكون قوله والشهدا جملة مبتدا خبره ما بعده لانه ليس كل مومن صديق
شهيدا في سبيل الله ويرجحه ايضا انه لو كان الشهدا داخلا في جملة الخبر عن المو
منين لكان قوله لهم اجرهم عند ربهم داخلا ايضا في جملة الخبر عنهم ويكون
قد اخبر عنهم بثلاثة اشيا احدها انهم هم الصديقون والثاني انهم الشهدا
والثالث انهم لهم اجرهم ونورهم وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الاول
ثم ذكر الخبر الثالث مجردا عن العطف وهذا كما تقول زيد كريم وعالم له مال
والاحسن تناسب الاخبار بان تجردها كلها من العطف او تعطفها جميعها
فتقول زيد كريم عالم له مال او كريم وعالم وله مال فتامله ويرجحه ايضا
ان الكلام يصير جملا مستقلة قد ذكر فيها اصناف خلقه السعدا وهم الصد
يقون والشهدا والصالحون وهم المذكورون في اول الاية وهم المتصد
قون الذين اقرضوا الله قرضا حسنا فهولا ثلاثة اصناف ثم ذكر الرسل
في قوله لقد ارسلنا رسلنا بالبينات فتناول ذلك الاصناف الاربعة المذكورة
في سورة النسا فهولا هم السعدا ثم ذكر الاشقيا وهم نوعان كفار ومنا
فقون فقال والذين كفروا وكذبوا باياتنا اولئك اصحاب الجحيم وذكر المنا
فقين يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين امنوا انظرونا فهولا اصناف
العالم كلهم وترك سبحانه ذكر المخلط صاحب الشايبتين على طريقة القران في ذكر
السعدا والاشقيا دون المخلطين غالبا لسر اقتضته حكمته سبحانه وتعالى
فليحذر صاحب التخليط فانه لا ضمان له على الله ولا هو من اهل وعيده
المطلق ولا ييأس من روح الله فانه ليس من الكفار الذين قد قطع لهم
بالعذاب ولكنه بين الجنة والنار واقف بين الوعد والوعيد كل منهما

يدعوه الى موجبه لانه اتى بسببه وهذا هو الذي لحظه القايلون بالمنزلة بين
المنزلتين ولكن غلطوا في تخليده في النار ولو نزلوه منزلة بين المنزلتين
ووكلوه الى المشية وقالوا بانه يخرج من النار بتوحيده وايمانه لاصابوا
ولكن منزلة بين منزلتين وصاحبها مخلد في النار مما لا يقتضيه عقل
ولا سمع بل النصوص الصريحة المعلومة الصحة تشهد ببطلان قولهم
والله اعلم وايضا فصاحب الثابتين يعلم حكمه من نصوص الوعد والو
والوعيد فان الله رتب على كل جزا في الخير والشر فاذا اتى العبد بهما كان فيه
سبب الجزائين والله سبحانه لا يضيع مثقال ذرة فان كان عمل الشر مما يو
جب سقوط اثر الحسنة كالكفر كان التاثير له وان لم يسقطه كالـ
لمعصية ترتب في حقه الاثران ما لم يسقط احدهما بسبب من الاسباب
التي سنذكرها ان شاء الله فيما بعد والمقصود ان درجة الصديقية
والربانية ووراثة النبوة وخلافة الرسالة هي افضل درجات الامة
ولو لم يكن من فضلها وشرفها الا ان كل من علم بتعليمهم وارشادهم
او علم غيره شيا من ذلك كان له مثل اجره ما دام ذلك جاريا في الامة
على اباد الدهور وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال لعلي ابن ابي
طالب والله لان يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من ان يكون لك
حمر النعم وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال من سن في الاسلام سنة حسنة
فعمل بها بعده كان له مثل اجر من عمل بها لا ينقص ذلك من اجورهم شيا
وصح عنه انه قال اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية
او علم ينتفع به او ولد صالح يدعو له وصح عنه انه قال من يرد الله
به خيرا يفقهه في الدين وفي السنن عنه انه قال ان العالم ليستغفر له من

في

في السموات ومن في الارض حتى النملة في جحرها وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال
ان الله وملايكته يصلون على معلم الناس الخير وعنه صلى الله عليه وسلم انه
قال ان العلما ورثة الانبيا ان الانبيا لم يورثوا دينارا ولا درهما وانما ورثوا
العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر وعنه العالم والمتعلم شريكان في الاجر ولا
خير في ساير الناس بعد وعنه صلى الله عليه وسلم انه قال نضر الله امرا سمع
مقالتي فوعاها فاداها الى من سمعها والاحاديث في هذا كثيرة جدا وقد
ذكرنا مايتي دليل على فضل العلم واهله في كتاب مفرد وفي كتاب المفتاح
لدار السعادة فيا لها من مرتبة ما اعلاها ومنقبة ما اجلها واسناها
ان يكون المرء في حياته مشغولا ببعض اشغاله او في قبره قد صار
اشلاء واوصالا متفرقة وصحف حسناته متزايدة تملى فيها الحسنات كل وقت
واعمال الخير مهداة اليه من حيث لا يحتسب تلك والله المكارم والغنايم
وفي ذلك فليتنافس المتنافسون وعليه يحسد الحاسدون وذلك فضل
الله يوتيه من يشا والله ذو الفضل العظيم وحقيق بمرتبة هذا شانها ان
تنفق فيها نفايس الانفاس وعليها يتسابق السابقون اليها وتتوفر
عليها الاوقات وتتوجه نحوها الطلبات فنسال الله الذي بيده مفاتيح
كل خير ان يفتح علينا خزاين رحمته ويجعلنا من اهل هذه المرتبة بمنه وكرمه
فاصحاب هذه المرتبة يدعون عظما في ملكوت السما كما قال بعض السلف
من علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيما في ملكوت السما وهولاء هم العدول
حقا بتعديل رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم اذ يقول فيما روي عنه من وجوه
يسند بعضها بعضا يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف
الغالين وانتحال المبطلين وتاويل الجاهلين وما احسن ما قال فيهم الامام

احمد في خطبة كتابه الرد على الجهمية الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من
الرسل بقايا من اهل العلم يدعون من ضل الى الهدى ويصبرون منهم على
الاذى ويبصرون بنور الله اهل العمى فكم من قتيل لابليس قد احيوه وكم من ضال
جاهل قد هدوه فما احسن اثرهم على الناس واقبح اثر الناس عليهم ينفون
عن كتاب الله تاويل الجاهلين وتحريف الغالين وانتحال المبطلين وذكر
ابن وضاح هذا الكلام عن عمر رضي الله عنه

الطبقة الخامسة

ايمة العدل وولاة الدين يامن بهم السبيل ويستقيم بهم العالم ويستنصر
بهم الضعيف ويذل بهم الظالم ويامن بهم الخايف ويقام بهم الحدود ويد
فع بهم الفساد ويامرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقام بهم حكم
الكتاب والسنة وتطفى بهم نيران البدع والضلال وهولا هم الذين
تنصب لهم المنابر من النور عن يمين الرحمن عز وجل يوم القيمة فيكو
نون عليها والولاة الظلمة قد صهرهم حر الشمس وقد بلغ منهم العرق
مبلغه وهم يحملون اثقال مظالمهم العظيمة على ظهورهم الضعيفة في يوم
كان مقداره خمسين الف سنة ثم يرى سبيل احدهم اما الى الجنة واما الى
النار قال النبي صلى الله عليه وسلم المقسطون عند الله على منابر من نور يوم
القيمة عن يمين الرحمن تبارك وتعالى وكلتا يديه يمين الذين يعدلون
في حكمهم واهليهم وما ولوا وعنه صلى الله عليه وسلم ان احب الخلق الى الله
واقربهم منه منزلة يوم القيمة امام عادل وان ابغض الخلق الى الله وابعدهم
منه منزلة يوم القيمة امام جاير او كما قال وهم احد السبعة الاصناف الذين
يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل الا ظله وكما كان الناس في ظل عدلهم في الدنيا
كانوا هم في ظل عرش الرحمن يوم القيمة ظلا بظل جزاء وفاقا ولو لم يكن من

فضلهم

فضلهم وشرفهم الا ان اهل السماوات والارض والطير في الهوا يصلون
عليهم ويستغفرون لهم ويدعون لهم وولاة الظلم يلعنهم من بين السما
والارض حتى الذباب والطير كما ان معلم الناس الخير يصلي عليه الله وملايكته
بكنه وكاتم العلم والهدى الذي انزله الله وحامل اهله على كتمانه يلعنه الله وملا
ويلعنه اللاعنون فيا لها من منقبة ومرتبة ما اجلها واشرفها ان يكون
الوالي والامام على فراشه وغيره يعمل بالخير وتكتب الحسنات في صحايفه
في مثل ايه ما دام يعمل بعدله ولساعة واحدة منه خير من عبادة
اعوام من غيره فاين هذا من صفة الغاش لرعيته الظالم الذي قد حرم
الله عليه الجنة واوجب له النار ويكفي في فضله وشرفه انه يكف عن الله دعوة
المظلوم كما في بعض الاثار ايها الملك المسلط المغرور اني لم ابعثك لتجمع الدنيا
بعضها الى بعض على بعض ولكن بعثتك لتكف عني دعوة المظلوم فاني لا اجبها
ولو كانت من كافر فاين من هو نايم واعين العباد ساهرة يدعوا الله له
واخر اعينهم ساهرة يدعوا الله عليه

الطبقة السادسة

المجاهدون في سبيل الله وهم جند الله الذين يقيم بهم دينه ويدفع بهم باس
اعدايه ويحفظ بهم بيضة الاسلام ويحمي بهم حوزة الدين وهم الذين يقا
تلون اعدا الله ليكون الدين كله لله وتكون كلمة الله هي العليا قد بذلوا
انفسهم في محبة الله ونصر دينه واعلا كلمته ودفع اعدايه وهم شركا لكل
من يحمونه بسيوفهم في اعمالهم التي يعملونها وان باتت ديارهم وهم مثل اجور
من عبد الله بسبب جهادهم وفتوحهم فانهم كانوا هم السبب فيه والشارع
قد نزل المتسبب منزلة الفاعل التام في الاجر والوزر ولهذا كان
الداعي الى الهدى والداعي الى الضلال لكل منهما بتسببه مثل اجر من اتبعه

الطبقة السادسة

وقد تظافرت ايات الكتاب وتواترت نصوص السنة على الترغيب في الجهاد
والحظ عليه ومدح اهله والاخبار عن ما لهم عند ربهم من انواع الكرا
مات والعطايا الجزيلات ويكفي في ذلك قوله تعالى يا ايها الذين امنوا هل
ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم فتشوقت النفوس الى هذه التجارة
الرابحة التي الدال عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال تؤمنون بالله
ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم فكان النفوس
ضنت بحياتها وبقائها فقال ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون يعني ان الجهاد
خير لكم من قعودكم طلبا للحياة والسلامة فكانها قالت فما لنا في هذا
الجهاد من الحظ فقال يغفر لكم ذنوبكم ومع المغفرة يدخلكم جنات تجري من
تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم فكانها
قالت هذا لنا في الاخرة فما لنا في الدنيا فقال واخرى تحبونها نصر من الله فاذا
وفتح قريب وبشر المومنين فلله ما احلى هذه الالفاظ وما الصقها
بالقلوب وما اعظمها جذبا لها وتسييرا الى ربها وما الطف موقعها
من قلب كل محب وما اعظم غنى القلب واطيب عيشه حين يباشر معانيها
فنسال الله من فضله انه جواد كريم ومن هذا قوله تعالى اجعلتم سقاية
الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن امن بالله واليوم الاخر وجاهد في
سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين الذين
امنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله باموالهم وانفسهم اعظم درجة
عند الله واولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات
لهم فيها نعيم مقيم خالدين فيها ابدا ان الله عنده اجر عظيم فاخبر سبحانه انه
لا يستوي عنده عمار المسجد الحرام وهم عماره بالاعتكاف والطواف والصلاة

هذه

هذه هي عمارة مساجده المرادة في القران واهل سقاية الحاج لا يستوون
هم واهل الجهاد في سبيله واخبر ان المومنين المجاهدين في سبيله
اعظم درجة عنده وانهم هم الفائزون وانهم هم اهل البشارة بالرحمة
والرضوان والجنات فنفى التسوية بين المجاهدين وعمار المسجد الحرام
بانواع العبادة مع ثنائه على عماره بقوله انما يعمر مساجد الله من امن
بالله واليوم الاخر واقام الصلوة واتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى او
لئك ان يكونوا من المهتدين فهؤلاء هم عمار المساجد ومع هذا
فاهل الجهاد ارفع درجة عند الله منهم وقال تعالى لا يستوي القاعدون
من المومنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله باموالهم
وانفسهم فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة
وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما
درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما فنفى سبحانه التسوية
بين المومنين القاعدين عن الجهاد وبين المجاهدين ثم اخبر عن تفضيل
المجاهدين على القاعدين درجة ثم اخبر عن تفضيلهم عليهم درجات وقد
اشكل فهم هذه الاية على طائفة من الناس من جهة ان القاعدين الذين
فضل عليهم المجاهدون بدرجة ان كانوا هم اولي الضرر والقاعدون
الذين فضل عليهم المجاهدون هم غير اولي الضرر فيكون المجاهدون
افضل من القاعدين مطلقا وعلى هذا فما وجه استثناء اولي الضرر من
القاعدين وهم لا يستوون هم والمجاهدون اصلا فيكون حكم المستثنى
والمستثنى منه واحدا فهذا وجه الاشكال ونحن نذكر ما قاله هولاء في
الاية ثم نذكر ما يزيل الاشكال بحمد الله فاختلف القراء في اعراب غير فقرا

رفعا ونصبا وهما في السبعة وقرئ بالجر في غير السبعة وهي قراءة ابي حيوة
فاما قراءة النصب فعلى الاستثناء لان غير تعرب في الاستثناء اعراب
الاسم الواقع بعد الا وهو النصب هنا هذا هو الصحيح وقالت طا
يفة اخرى انها نصب على الحال لا يستوي القاعدون غير مضرورين
اي لا يستوون في حال صحتهم هم والمجاهدون والاستثناء اصح فان غير
لا تكاد تقع حالا في كلامهم الا مضافة الى نكرة كقوله تعالى فمن اضطر غير
باغ وقوله احلت لكم بهيمة الانعام الا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وقوله
صلى الله عليه وسلم مرحبا بالوفد غير خزايا ولا ندامى فان اضيفت
الى معرفة كانت تابعة لما قبلها كقوله تعالى صراط الذين انعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولو قلت مرحبا بالوفد غير خزايا ولا الندامى
لجرت غير هذا هو المعروف من كلامهم والكلام في عدم تعرف غير
بالاضافة وحسن وقوعها اذ ذاك حالا له مقام اخر واما الرفع
فعلى النعت للقاعدين هذا هو الصحيح وقال ابو الحسن هو خبر
مبتدا محذوف وتقديره الذين هم غير اولي الضرر والذي حمله على
هذا ظنه ان غير لا تقبل التعريف بالاضافة فلا تجري صفة للمعرفة
وليس مع من ادعى ذلك حجة يعتمد عليها سوى قولهم ان غير توغلت
في الابهام فلا تتعرف بما تضاف اليه وجواب هذا انها اذا دخلت بين
متقابلين لم يكن فيها ابهام لتعينها بما تضاف اليه واما قراءة الجر ففيها
وجهان ايضا احدهما وهو الصحيح انه نعت للمؤمنين والثاني وهو
قول المبرد انه بدل منه بناء على انه نكرة فلا تنعت به المعرفة وعلى الا
قوال كلها فهو متضمن معنى الاستثناء وان نفي التسوية غير مسلط عليها

اضيف اليه غير وقوله فضل الله المجاهدين على القاعدين درجة هو
مبين لمعنى نفي المساواة قالوا والمعنى فضل الله المجاهدين على القاعدين
من اولي الضرر درجة واحدة لامتيازه عنه بالجهاد بنفسه وماله ثم اخبر
سبحانه ان الفريقين كليهما موعود بالحسنى فقال وكلا وعد الله الحسنى اي
المجاهد والقاعد المضرور لاشتراكهم في الايمان قالوا وفي هذا
دليل على تفضيل الغني المنفق على الفقير لان الله سبحانه اخبر ان المجاهد
بماله ونفسه افضل من القاعد وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس
واما الفقير فنفى عنه الحرج بقوله ولا على الذين اذا ما اتوك لتحملهم
قلت لا اجد ما احملكم عليه فاين مقام من حكم له بالتفضيل الى مقام
من نفى عنه الحرج قالوا فهذا حكم القاعد من اولي الضرر والمجاهد
واما القاعد من غير اولي الضرر فقال سبحانه وفضل الله المجاهدين على
القاعدين اجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وقوله درجات قيل
هو نصب على البدل من قوله اجرا عظيما وقيل تاكيد له وان كان بغير
لفظه لانه هو في المعنى قال قتادة كان يقال الاسلام درجة والهجرة في
الاسلام درجة والجهاد في الهجرة درجة والقتل في الجهاد درجة
وقال ابن زيد الدرجات التي فضل بها المجاهد على القاعد سبع وهي
التي ذكرها الله سبحانه تعالى في براءة اذ يقول سبحانه ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ
ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار
ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر
المحسنين فهذه خمس ثم قال ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون
واديا الا كتب لهم فهاتان اثنتان وقيل الدرجات سبعون درجة ما بين

الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمر سبعون سنة والصحيح ان الدرجات
هي المذكورة في حديث ابي هريرة الذي رواه البخاري في صحيحه عنه عن النبي
صلى الله عليه وسلم انه قال من امن بالله ورسوله واقام الصلاة وصام
رمضان كان حقا على الله ان يدخله الجنة هاجر في سبيل الله او جلس في ارضه
التي ولد فيها قالوا يا رسول الله افلا نخبر الناس بذلك قال ان في الجنة
مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيله بين كل درجتين ما بين
السماء والارض فاذا سالتم الله فاسالوه الفردوس فانه وسط الجنة
واعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجر انهار الجنة قالوا وجعل سبحانه
وتعالى التفضيل الاول بدرجة فقط وجعله هاهنا بدرجات ومغفرة
ورحمة وهذا يدل على انه تفضيل على غير اولي الضرر فهذا تقرير هذا
القول وايضاحه ولكن ينبغي ان يقال اذا كان المجاهدون افضل من بلغ
القاعدين مطلقا لزم ان لا يستوي مجاهد وقاعد مطلقا فلا يبقى
في تقييد القاعدين بكونهم من اهل الضرر فائدة فانه لا يستوي
المجاهدون والقاعدون من اولي الضرر ايضا فان القاعدين
المذكورين في الاية الذين وقع التفضيل عليهم هم غير اولي الضرر
لا القاعدون الذين هم اولو الضرر فانه لم يذكر حكمهم في الاية
بل استثناهم وبين ان التفضيل على غيرهم فاللام في القاعدين للعهد
والمعهود هم الذين اولي الضرر لا المضرورون وايضا فالقاعد
لحاجة من المجاهدين لضرورة تمنعه من الجهاد له مثل اجر المجاهد كما ثبت
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال اذا مرض العبد او سافر كتب له اجر ما كان
يعمل صحيحا مقيما وقال ان بالمدينة اقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم

واديا

٧



واديا الا وهم معكم قالوا وهم بالمدينة قال وهم بالمدينة حبسهم العذر
وعلى هذا فالصواب ان يقال الاية دلت على ان القاعدين من غير
اولي الضرر عن الجهاد لا يستوون هم والمجاهدون وسكتت عن القا
عدين من اولي الضرر فلم تدل على حكمهم بطريق منطوقها ولا يدل
مفهومها على مساواتهم للمجاهدين بل هذا النوع ينقسم الى معذور من
اهل الجهاد غلبه عذره واقعده ونيته جازمة لم يتخلف عنها مقدورها
وانما اقعده العجز فهذا الذي يقتضيه ادلة الشرع ان له مثل اجر المجاهد وهذا
القسم لا يتناوله الحكم بنفي التسوية وهذا لان قاعدة الشريعة ان العزم
التام اذا اقترن به ما يمكن من القول او مقدمات الفعل نزل صاحبه
في الثواب والعقاب منزلة الفاعل التام كما دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم
اذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قالوا هذا القاتل
فما بال المقتول قال انه كان حريصا على قتل صاحبه وفي الترمذي ومسند الا
مام احمد حديث ابي كبشة الانماري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال انما الدنيا
لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي في ماله ربه ويصل رحمه
ويعلم لله فيه حقا فهذا باحسن المنازل عند الله وعبد رزقه الله علما ولم
يرزقه مالا فهو يقول لو ان لي مالا لفعلت فيه بعمل فلان فهو بنيته وهما في
الاجر سواء وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما فهو لا يتقي في ماله ربه
ولا يصل رحمه ولا يعلم لله فيه حقا فهذا باسوا المنازل عند الله وعبد لم
يرزقه الله مالا ولا علما فهو يقول لو ان لي مالا لعملت بعمل فلان فهو
بنيته فهما في الوزر سواء فاخبر صلى الله عليه وسلم ان وزر الفاعل والناوي
الذي ليس مقدوره الا بقوله دون فعله سواء لانه اتى بالنية ومقدوره

التام وكذلك اجر الفاعل والناوي الذي اقترن قوله بنيته وكذلك
المقتول الذي سل السيف واراد به قتل اخيه المسلم فقتل نزل منزلة القاتل
لنيته التامة التي اقترن بها مقدورها من السعي والحركة ومثل هذا
قوله صلى الله عليه وسلم من دل على خير فله مثل اجر فاعله فانه بدلالته ونيته
نزل منزلة الفاعل ومثله من دعى الى هدى فله مثل اجور من تبعه ومن
دعى الى ضلالة كان عليه من الوزر مثل اثام من اتبعه لاجل نيته واقتران
مقدورها بها من الدعوة ومثله اذا جاء المصلي الى المسجد ليصلي جماعة
فادركهم وقد صلوا فصلى وحده كتب له مثل اجر صلاة الجماعة بنيته
وسعيه وقد جاء مصرحا به في حديث مروي ومثل هذا من كان له
ورد يصليه من الليل فنام ومن نيته ان يقوم اليه فغلبه عنه نوم كتب
له اجر ورده وكان نومه عليه صدقة ومثله المريض والمسافر اذا كان
له عمل يعمله فشغل عنه بالمرض والسفر كتب له مثل عمله وهو صحيح مقيم
ومثله من سال الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء ولو
مات على فراشه ونظائر ذلك كثيرة والقسم الثاني معذور ليس من
نيته الجهاد ولا هو عازم عليه عزما تاما فهذا لا يستوي هو والمجا
هد في سبيل الله قد فضل الله المجاهد عليه وان كان معذورا لانه لا نية
له تلحقه بالفاعل التام كنية اصحاب القسم الاول وقد قال النبي صلى الله عليه
وسلم في حديث عثمان ابن مظعون ان الله قد اوقع اجره على قدر نيته
فلما كان القسم المعذور فيه هذا التفصيل لم يجز ان يساوى بالمجاهد مطلقا
ولا ينفى عنه المساواة مطلقا ودلالة المفهوم لا عموم لها فان العموم
انما هو من احكام الصيغ العامة وعوارض الالفاظ والدليل

الموجب

الموجب للقول بالمفهوم لا يدل على ان له عموما تحت اعتباره فان ادلة
المفهوم ترجع الى شيئين احدهما التخصيص والاخر التعليل فاما التخصيص
فهو ان تخصيص الحكم بالمذكور يقتضي نفي الحكم عما عداه والا بطلت فا
يدة التخصيص وهذا لا يقتضي العموم وسلب حكم المنطوق عن جميع
صور المفهوم لان فائدة التخصيص قد تحصل بانقسام صور المفهوم
الى ما يسلب الحكم عن بعضها ويثبت لبعضها او ثبوت تفصيل فيه فيثبت
له حكم المنطوق على وجه دون وجه اما بشرط لا تجب مراعاته في المنطوق
واما في وقت دون وقت بخلاف حكم المنطوق فانه ثابت ابدا
ونحو ذلك من فوائد التخصيص واذا كانت فائدة التخصيص حاصلة
بالتفصيل والانقسام فدعوى لزوم العموم من التخصيص دعوى
باطلة فاثباته بمجرد الحكم واما التعليل فانهم قالوا ترتيب الحكم على هذا
الوصف المناسب له يقتضي نفي الحكم عن ما عداه والا لم يكن الوصف
المذكور علة وهذا ايضا لا يستلزم عموم النفي عن كل ما عداه وانما
غايته اقتضاؤه نفي الحكم المرتب على ذلك الوصف عن الصور المنفي
عنها الوصف واما نفي الحكم جملة فلا يجوز لثبوته بوصف اخر وعلة
اخرى فان الحكم الواحد بالنوع يجوز تعليله بعلل مختلفة وفي الوا
حد بالعين كلام ليس هذا موضعه ومثال هذا ما نحن فيه فان قوله
تعالى لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهد
ون لا يدل على مساواة المضرورين للمجاهدين مطلقا من حيث انهم ضرروا
بل ان ثبتت المساواة فانها معللة بوصف اخر وهي النية الجازمة والعزم
التام والضرر المانع من الجهاد في تلك الحال لا يكون مانعا من المساواة

في الاجر والله اعلم والمقصود الكلام على طبقات الناس في الاخرة واما
النصوص والادلة على فضل الجهاد واهله فاكثر من ان تذكر هنا ولعلها
ان تفرد في كتاب على هذا النمط انشاء الله فهذه الدرجات الثلاث هي
درجات السبق اعني درجة العلم والعدل والجهاد وبها سبق الصحابة
رضي الله عنهم وادركوا من قبلهم وفاتوا من بعدهم واستولوا على الا
مد البعيد وحازوا قصبات العلى وكانوا السبب في وصول الاسلام
الينا وفي كل خير وهدى وسبب ينال به السعادة والنجاة وهم اعدل الائمة
فيما ولوه واعظمها جهادا في سبيل الله والائمة في اثار عدلهم علمهم
وعدلهم وجهادهم الى يوم القيمة فلا ينال احد منهم مسالة علم نافع الا على ايد
يهم ومن طريقهم ينالها ولا تسكن بقعة من الارض منا الا بسبب جها
دهم وفتوحاتهم ولا يحكم امام ولا حاكم بعدل وهدى الا كانوا هم في
في السبب في وصوله فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف والقلوب بالايمان
وعمروا البلاد بالعدل والقلوب بالعلم والهدى فلهم من الاجر بقدر اجور
الامة الى يوم القيمة مضافا الى اجر اعمالهم التي اختصوا بها فسبحان من يختص
بفضله ورحمته من يشاء وانما نالوا هذا بالعلم والجهاد والحكم بالعدل
وهذه مراتب السبق التي يهبها الله من يشاء من عباده الطبقة السا
بعة اهل الايثار والصدقة والاحسان الى الناس باموالهم على اخ
اختلاف حاجاتهم ومصالحهم من تفريج كرباتهم ودفع ضروراتهم وكفايتهم
في مهماتهم وهم احد الصنفين الذين قال النبي صلى الله عليه وسلم لا حسد الا في
اثنتين رجل اتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس ورجل اتاه الله
مالا وسلطه على هلكته في الحق يعني انه لا ينبغي لاحد ان يغبط احدا على نعمة

ويتمنى

الطبقة السابعة

ويتمنى مثلها الا احد هذين وذلك لما فيهما من النفع العام والاحسان
المتعدي الى الخلق فهذا ينفعهم بعلمه وهذا ينفعهم بماله والخلق كلهم
عيال الله واحبهم اليه انفعهم لعياله ولا ريب ان هذين الصنفين
من انفع الناس لعيال الله ولا يقوم امر الناس الا بهذين الصنفين ولا
يعمر العالم الا بهما قال تعالى الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون
ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون
وقال تعالى الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون وقال تعالى ان المصدقين والمصد
قات واقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم اجر كريم وقال تعالى من ذا الذي
يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه
ترجعون وقال من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له وله اجر كريم
فصدر سبحانه الاية بالطف انواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى
الطلب وهو ابلغ في اللطف من صيغة الامر والمعنى هل احد يبذل هذا
القرض الحسن فيجازى عليه اضعافا مضاعفة وسمى ذلك الانفاق قرضا
حسنا حثا للنفوس وبعثا لها على البذل لان الباذل متى علم ان عين ماله
يعود ولا بد طوعت له نفسه بذله وسهل عليه اخراجه فان علم ان المستقرض
ملي وفي محسن كان ابلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه فان علم ان المستقرض
يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير اضعاف ما بذله كان بالقرض
اسمح فان علم انه مع ذلك يزيده من فضله وعطائه اجرا اخر من غير جنس القرض
وان ذلك الاجر حظ عظيم وعطاء كريم فانه لا يتخلف عن قرضه الا لافة في نفسه
من البخل والشح او عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف ايمانه ولهذا

كانت الصدقة برهانا لصاحبها وهذه الامور كلها تحت هذه الالفاظ التي تضمنتها
الاية فانه سبحانه سماه قرضا واخبر انه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن
قرض احسان الى المقرض واستدعا لمعاملته ليعرف مقدار الربح فهو
الذي اعطاه ماله واستدعى منه معاملته به ثم اخبر عن ما يرجع اليه بالقرض
وهو الاضعاف المضاعفة ثم اخبر عن ما يعطيه فوق ذلك من الزيادة
وهو الاجر الكريم العظيم وحيث جا هذا الاقراض في القران قيده بكونه
حسنا وذلك يجمع امورا ثلاثة احدها ان يكون من طيب ماله لا من رديه
ومن خبيثه الثاني ان يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضات
الله الثالث ان لا يمن به ولا يوذي فالاول يتعلق بالمال والثاني
يتعلق بالمنفق بينه وبين الله تعالى والثالث بينه وبين الاخذ وقال تعالى
مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في
كل سنبلة ماية حبة والله يضاعف لمن يشا والله واسع عليم وهذه الاية
كانها كالتفسير والبيان لمقدار الاضعاف التي يضاعفها للمقرض ومثله سبحانه
بهذا المثل احضارا لصورة التضعيف في الاذهان بهذه الحبة التي غيبت
في الارض فانبتت سبع سنابل في كل سنبلة ماية حبة حتى كان القلب ينظر
الى التضعيف ببصيرته كما ينظر البصر الى هذه السنابل التي هي من الحبة الواحدة
فينضاف الشاهد العياني الى الشاهد الايماني القراني فيقوى ايمان المنفق
وتسخو نفسه بالانفاق وتامل كيف جمع السنبلة في هذه الاية على سنابل
وهي من جمع الكثرة اذ المقام مقام تكثير وتضعيف وجمعها على سنبلات في قوله
وسبع سنبلات خضر واخر يابسات وهي من جموع القلة لان السبعة قليلة
ولا مقتضي للتكثير وقوله تعالى والله يضاعف لمن يشاء قيل المعنى والله يضاعف

هذه

هذه المضاعفة لمن يشا لا لكل منفق بل يختص برحمته من يشاء وذلك لتفاوت
احوال الانفاق في نفسه وفي صفات المنفق واحواله وفي شدة الحاجة
وعظيم النفع وحسن الموقع وقيل والله يضاعف فوق ذلك فلا يقتصر
به على السبع ماية بل يجاوز في المضاعفة هذا المقدار الى اضعاف كثيرة
واختلف في تقدير الاية فقيل مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله
كمثل حبة وقيل مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل باذر حبة ليطابق
الممثل للممثل به فهنا اربعة امور منفق ونفقة وباذر وبذر فذكر
من كل شق اهم قسميه فذكر من شق الممثل المنفق اذ المقصود ذكر
حاله وشانه وسكت عن ذكر النفقة لدلالة اللفظ عليها وذكر من الممثل
شق الممثل به البذر اذ هو المحل الذي حصلت فيه المضاعفة وترك ذكر
الباذر لان الغرض لا يتعلق بذكره فتامل هذه البلاغة والفصاحة
والايجاز المتضمن لغاية البيان وهذا كثير في امثال القران بل عامتها
ترد على هذا النمط ثم ختم الاية باسمين من اسمائه الحسنى مطابقين لسياقها
وهي الواسع العليم فلا يستبعد العبد هذه المضاعفة ولا يضيق عنها
عطنه فان المضاعف واسع العطا واسع الغنا واسع الفضل ومع ذلك
فلا يظن ان سعة عطايه تقتضي حصولها لكل منفق فانه عليم بمن يصلح
لهذه المضاعفة وهو اهل لها ومن لا يستحقها ولا هو اهل لها فان كرمه
سبحانه وفضله لا يناقض حكمته بل يضع فضله مواضعه بسعته ورحمته
ويمنعه من ليس من اهله بحكمته وعلمه ثم قال تعالى الذين ينفقون اموالهم
في سبيل الله ثم لا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لهم اجرهم عند ربهم
ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون هذا بيان القرض الحسن ما هو وهو

ان يكون في سبيله اي في مرضاته والطريق الموصلة اليه ومن اهمها سبيل
الجهاد فسبيل الله خاص وعام والخاص جزء من السبيل العام وان لا
يتبع صدقته بمن ولا اذى فالمن نوعان احدهما من بقلبه من غير ان
يصرح بلسانه له وهذا وان لم يبطل الصدقة فهو ينقص شهود منة الله عليه
في اعطائه المال وحرمان غيره وتوفيقه للبذل ومنع منه فلله المنة
عليه من كل وجه فكيف يشهد قلبه منه لغيره والنوع الثاني ان يمن
عليه بلسانه فيعتد على من احسن اليه باحسانه ويريه انه اصطنعه وانه
اوجب عليه حقا وطوقه منه في عنقه ويقول اعطيتك كذا وكذا ويعدد
اياديه عنده قال سفيان تقول اعطيتك واعطيتك فما شكرت وقال
عبد الرحمن ابن زيد كان ابي يقول اذا اعطيت رجلا شيا ورايت ان سلا
مك يثقل عليه فكف سلامك عنه وكانوا يقولون اذا اصطنعتم صنيعة
فانسوها واذا اسدي اليكم صنيعة فلا تنسوها وفي ذلك قيل
وان امرا اهدى الي صنيعة ۞ وذكرنيها مرة لبخيل ۞ وقيل
صنوان من منح سائله ومن ۞ ومن منع نائله وضن ۞ وحظر الله على عباده
المن بالصنيعة واختص به صفة لنفسه لانه من العباد تكدير وتعيير ومن
الله سبحانه افضال وتذكير وايضا فانه هو المنعم في نفس الامر والعباد وسا
يط فهو المنعم على عبده في الحقيقة وايضا فالامتنان استعباد وكسر واذلال
لمن يمن عليه ولا تصلح العبودية والذل الا لله وايضا فالمنة ان يشهد
المعطي انه هو رب الفضل والانعام وانه ولي النعمة ومسديها وليس ذلك
في الحقيقة الا لله وايضا فالمان بعطائه يشهد نفسه مترفعا على الاخذ مستعليا
عليه غنيا عنه عزيزا ويشهد ذل الاخذ وحاجته اليه وفاقته ولا ينبغي ذلك

للعبد وايضا فان المعطي قد تولى الله ثوابه ورد عليه ثواب ما اعطى فبقي
عوض ما اعطى عند الله تعالى فاي حق بقي له قبل الاخذ فاذا امتن عليه فقد
ظلمه ظلما بينا وادعى ان حقه في قبله ومن هنا والله اعلم بطلت صدقته بالمن
فانه لما كانت معاوضته ومعاملته مع الله عز وجل وذلك الصدقة عنده
فلم يرض به ولاحظ العوض من الاخذ والمعاملة عنده فمن عليه بما اعطاه
ابطل معاوضته مع الله ومعاملته له فتامل هذه النصايح من الله لعباده
ودلالتها على ربوبيته والاهيته وحده وانه يبطل عمل من نازعه في شيء
من ربوبيته والاهيته لا اله غيره ولا رب سواه ونبه بقوله ثم لا
يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى على ان المن والاذى ولو تراخى عن
الصدقة وطال زمانه ضر بصاحبه ولم يحصل له مقصود الانفاق
ولو اتى بالواو وقال ولا يتبعون ما انفقوا منا ولا اذى لاوهمت
تقييد ذلك بالحال واذا كان المن والاذى المتراخي مبطل لاثر الانفاق مانع
من الثواب فالمقارن اولى واحرى وتامل كيف جرد الخبر هاهنا عن الفاء
فقال لهم اجرهم عند ربهم وقرنه بالفاء في قوله الذين ينفقون اموالهم بالليل
والنهار سرا وعلانية فلهم اجرهم عند ربهم فان الفا الداخلة على خبر
المبتدا الموصول او الموصوف يفهم معنى الشرط والجزا وان الخبر مستحق
بما تضمنه المبتدا من الصلة او الصفة فلما كان المقام هنا يقتضي بيان حصر
المستحق للجزا دون غيره جرد الخبر عن الفا فان المعنى ان الذي
ينفق ماله لله ولا يمن ولا يوذي هو الذي يستحق الاجر المذكور لا الذي
ينفق لغير الله ولا من يمن ويوذي بنفقته فليس المقام مقام شرط وجزا
بل مقام بيان المستحق من غيره وفي الاية الاخرى ذكر الانفاق بالليل

والنهار سرا وعلانية فذكر عموم الاوقات وعموم الافعال فاتى بالفا في الخبر
ليدل على ان الانفاق في اي وقت وجد من ليل او نهار وعلى اي حالة وجد من سر او
علانية فانه سبب للجزا على كل حال فليبادر اليه العبد ولا ينتظر به غير وقته
وحاله فلا يوخر نفقة الليل اذا حضر الى النهار ولا نفقة النهار الى الليل
ولا ينتظر بنفقة العلانية وقت السر ولا بنفقة السر وقت العلانية فان
نفقته في اي وقت وعلى اي حال وجدت سبب لاجره وثوابه فتدبر هذه
الاسرار في القران فلعلك لا تظفر بها فيما يمر بك من التفاسير والمنة
والفضل لله وحده لا شريك له ثم قال تعالى قول معروف ومغفرة خير من صدقة
يتبعها اذى والله غني حليم فاخبر سبحانه ان القول المعروف وهو الذي تعرفه
القلوب ولا تنكره والمغفرة وهي العفو عمن اسا اليك خير من الصدقة
المقرونة بالاذى فالقول احسان وصدقة بالقول والمغفرة احسان
بترك المواخذة والمقابلة فهما نوعان من انواع الاحسان والصدقة
المقرونة بالاذى حسنة مقترنة بما يبطلها ولا ريب ان حسنتين خير من
حسنة باطلة ويدخل في هذا القول المعروف الرد الجميل على السائل والعدة
الحسنة والدعا الصالح له ونحو ذلك ويدخل في المغفرة مغفرته للسائل اذا
وجد منه بعض الجفوة والاذى بسبب رده فيكون عفوه عنه خيرا من ان
يتصدق عليه ويوذيه هذا على المشهور من القولين في الاية والقول
الثاني ان المغفرة من الله اي مغفرة لكم من الله بسبب القول المعروف والرد
الجميل خير من صدقة يتبعها اذى وفيها قول ثالث اي مغفرة من السائل
اذا رد وتعذر المسئول خير من ان ينال منه صدقة يتبعها اذى واصح
الاقوال هو الاول ويليه الثاني والثالث ضعيف جدا لان الخطاب

انما

انما هو للمنفق المسئول لا للسائل الاخذ والمعنى ان قول المعروف له
والتجاوز والعفو خير لك من ان تتصدق عليه وتوذيه ثم ختم الاية
بصفتين مناسبتين لما تضمنته فقال والله غني حليم وفيه معنيان ان الله
غني عنكم لن يناله شي من صدقاتكم وانما الحظ الاوفر لكم في الصدقة فنفعها
عايد اليكم لا اليه سبحانه فكيف يمن بنفقته ويوذي بها مع غنى الله التام
عنها وعن كل ما سواه ومع هذا فهو حليم اذ لم يعاجل المان الموذي بالعقوبة
وفي ضمن هذا الوعيد له والتحذير والمعنى الثاني انه سبحانه مع غناه التام
من كل وجه فهو الموصوف بالحلم والتجاوز والصفح مع عطائه الواسع وصد
قاته العميمة فكيف يوذي احدكم بمنه واذاه مع قلة ما يعطي ونزارته وفقره
ثم قال تعالى يا ايها الذين امنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى كالذي ينفق
ماله ريا الناس ولا يومن بالله واليوم الاخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب
فاصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شي مما كسبوا والله لا يهدي
القوم الكافرين فتضمنت هذه الاية الاخبار بان المن والاذى يبطل
الصدقة وهذا دليل على ان الحسنة قد تحبط بالسيئة مع قوله تعالى
يا ايها الذين امنوا لا ترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا
له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لا تشعرون وقد تقدم
الكلام على هذه المسالة في موضع اخر وقد يقال ان المن والاذى المقارن
للصدقة هو الذي يبطلها دون ما يلحقها بعدها الا انه ليس في اللفظ
ما يدل على هذا التقييد والسياق يدل على ابطالها به مطلقا وقد يقال
تمثيله بالمرائي الذي لا يومن بالله واليوم الاخر يدل على ان المن والا
ذى المبطل هو المقارن كالريا وعدم الايمان فان الريا لو تاخر عن العمل

لم يبطله ويجاب عن هذا بجوابين احدهما ان التشبيه وقع في الحال التي
يحبط بها العمل وهي حال المرائي والمان المؤذي في ان كل واحد منهما يحبط
العمل الثاني ان المرائي لا يكون الا مرائيا بالعمل لانه يفعل من الرؤية اي
صاحبه يعمل ليرى الناس عمله فلا يكون متراخيا وهذا بخلاف المن
والاذى فانه يكون مقارنا ومتراخيا وتراخيه اكثر من مقارنته ٥
وقوله كالذي ينفق اما ان يكون المعنى كابطال الذي ينفق فيكون
قد شبه الابطال بالابطال او المعنى لا تكونوا كالذي ينفق ماله رئا
الناس فيكون تشبيها للمنفق بالمنفق وقوله فمثله اي مثل هذا
المنفق الذي قد بطل ثواب نفقته كمثل صفوان وهو الحجر الاملس
وفيه قولان احدهما انه واحد والثاني انه جمع صفوانة عليه تراب
فاصابه وابل فتركه صلدا وهو الاملس الذي لا شيء عليه من نبات
ولا غيره وهذا من ابلغ الامثال واحسنها فانه يتضمن تشبيه قلب
هذا المنفق للرياء الذي لم يصدر انفاقه عن ايمان بالله واليوم الاخر
بالحجر الشديد وصلابته وعدم الانتفاع به وتضمن تشبيه ما علق
به من اثر الصدقة بالغبار الذي علق بذلك الحجر والوابل الذي
ازال ذلك التراب عن الحجر فاذهبه بالمانع الذي ابطل صدقته هذا
وازالها كما يذهب الوابل التراب على الحجر فيتركه صلدا فلا يقدر المنفق
على شيء من ثوابه لبطلانه وزواله وفيه معنى اخر وهو ان المنفق
لغير الله هو في الظاهر عامل عملا يترتب عليه الاجر ويزكو له كما
تزكو الحبة التي اذا بذرت في التراب الطيب انبتت سبع سنابل في
كل سنبلة مائة حبة ولكن وراء هذا الانفاق مانع يمنع من نموه وزكائه

كان

كان تحت التراب حجر يمنع من نبات ما بذر من الحب فيه فلا ينبت ولا يخرج
شيئا ثم قال ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من
انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها
وابل فطل والله بما تعملون بصير هذا مثل الذي مصدر نفقته عن الاخلاص
والصدق فان ابتغاء مرضات الله هو الاخلاص والتثبيت من النفس
هو الصدق في البذل فان المنفق يعترضه عند انفاقه افتان ان نجا
منهما كان مثله ما ذكر في هذه الاية احدهما طلبه بنفقته محمدة او ثناء
او غرضا من اغراضه الدنيوية وهذا حال اكثر المنفقين والافة الثانية
ضعف نفسه بالبذل وتقاعسها وترددها هل تفعل ام لا فالافة الا
ولى تزول بابتغا مرضات الله والافة الثانية تزول بالتثبيت فان تثبيت
النفس تشجيعها وتقويتها والاقدام بها على البذل وهذا هو صدقها
وطلب مرضات الله ارادة وجهه وحده وهذا اخلاصها فاذا كان مصدر
الانفاق عن ذلك كان مثله كجنة وهي البستان الكثير الاشجار فهو مجتن
بها اي مستتر ليس قاعا فارغا والجنة بربوة وهو المكان المرتفع لانها
اكمل من الجنة المستفلة التي بالوهاد والحضيض لانها اذا ارتفعت كانت
بمدرجة الاهوية والرياح وكانت ضاحية للشمس وقت طلوعها واستوا
بها وغروبها فكانت انضج ثمرا واطيبه واحسنه واكثره فان الثمار تزداد
طيبا وزكاء بالشمس والرياح بخلاف الثمار التي تنشأ في الظلال واذا كانت
الجنة بمكان مرتفع لم يخش عليها الا من قلة الشرب فقال تعالى اصابها وابل
وهو المطر الشديد العظيم القطر فادت ثمرتها واعطت بركتها فاخرجت
ثمرتها ضعفي ما تخرج غيرها او ضعفي ما كانت تثمر بسبب ذلك الوابل فهذا

حال السابقين المقربين فان لم يصبها وابل فطل وهو دون الوابل فانه يكفيها
لكرم منبتها وطيب مغرسها يكفي في اخراج بركتها بالطل وهذه الحال للابرار
المقتصدين في النفقة وهم درجات عند الله فاصحاب الوابل اعلاهم درجة
وهم الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية ويؤثرون على
انفسهم ولو كان بهم خصاصة واصحاب الطل مقتصدون فمثل حال القسمين
واعمالهم بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل وكما ان
كل واحد من المطرين يوجب زكا اكل الجنة ونموه بالاضعاف فكذلك نفقتهم
كثيرة كانت او قليلة بعد ان صدرت عن ابتغا مرضات الله والتثبيت
من نفوسهم فهي زاكية عند الله نامية مضاعفة واختلف في الضعفين
فقيل ضعف الشي مثلاه زايدا عليه وضعفه مثله وقيل ضعفه مثلاه
وضعفاه ثلاثة امثاله وثلاثة اضعافه اربعة امثاله كلما زاد
ضعفا زاد مثلا والذي حمل هذا القايل على ذلك فراره من استوا دلالة
المفرد والتثنية فانه راى ضعف الشي هو مثله الزايد عليه فاذا ضم الى المثل
صار مثلين وهما الضعف فلو قيل لهما ضعفان لم يكن فرق بين المفرد
والمثنى فالضعفان عنده مثلان مضافان الى الاصل ويلزم من هذا ان
يكون ثلاثة اضعافه ثلاثة امثاله مضافا الى الاصل وهذا ابدا والصواب
ان الضعفين هما المثلان فقط الاصل ومثله وعليه يدل قوله تعالى
فاتت اكلها ضعفين اي مثلين ولهذا قال في المحصنات نوتها اجرها
مرتين واما ما توهمه من استوا دلالة المفرد والتثنية فوهم منشاه
ظن ان الضعف هو المثل مع الاصل وليس كذلك بل المثل له اعتباران
ان اعتبر وحده فهو الضعف وان اعتبر مع نظيره فهما الضعفان والله

اعلم



اعلم واختلف في رفع قوله فطل فقيل مبتدا خبره محذوف اي فطل يكفيها وقيل
خبر مبتدا محذوف اي فالذي يربوها ويصيبها طل والضمير في اصابها اما ان
يرجع الى الجنة او الى الربوة وهما متلازمان ثم قال تعالى ايود احدكم ان تكون له
جنة من نخيل واعناب تجري من تحتها الانهار له فيها من كل الثمرات واصابه
الكبر وله ذرية ضعفا فاصابها اعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله
لكم الايات لعلكم تتفكرون قال الحسن هذا مثل قل والله من يعقله من
الناس شيخ كبير ضعيف جسمه وكثر صبيانه افقر ما كان الى جنته وان احد
كم افقر والله ما يكون الى عمله اذا انقطعت الدنيا وفي صحيح البخاري عن
عبيد ابن عمير قال قال عمر يوما لاصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيم ترون هذه
الاية نزلت ايود احدكم ان تكون له جنة قالوا الله اعلم فقال قولوا نعلم او لا
نعلم فقال ابن عباس في نفسي منها شي يا امير المومنين قال قل يا ابن اخي ولا
تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلا لعمل قال عمر اي عمل قال ابن عباس
لعمل قال عمر لرجل عمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى اغرقت
اعماله فقوله تعالى ايود احدكم اخرجه مخرج الاستفهام الانكاري وهو ابلغ من
النفي والنهي والطف موقعا كما ترى غيرك يفعل فعلا قبيحا فتقول افعل
هذا عاقل افعل هذا من يخاف الله والدار الاخرة وقال ايود احدكم بلفظ
الواحد لتضمنه معنى الانكار العام كما تقول افعل هذا احد فيه خير وهو
ابلغ في الانكار من ان يقال ايودون وقوله تعالى ايود ابلغ في هذا الانكار
من لو قيل ايريد لان محبة هذه الحال المذكورة وتمنيها اقبح وانكر من مجرد
ارادتها وقوله ان تكون له جنة من نخيل واعناب خص هذين النوعين من
الثمار بالذكر لانهما اشرف انواع الثمار واكثرها منافع فان منهما القوت

والغذا والشراب والفاكهة والحلو والحامض ويوكلان رطبا ويابسا ومنافعهما
كثيرة جدا وقد اختلف في الانفع والافضل منهما فرجحت طايفة النخل ورجحت
طايفة العنب وذكرت كل طايفة حججا لقولها ذكرناها في غير هذا الموضع ؈
وفصل الخطاب ان هذا يختلف باختلاف البلاد فان الله سبحانه اجرى العا
دة بان سلطان احدهما لا يحل حيث سلطان الاخر فالارض التي يكون فيها
النخل لا يكون العنب فيها طايلا ولا كثيرا لانه انما يخرج في الارض الرخوة اللينة
المعتدلة غير السبخة فينمو فيها ويكثر واما النخل فنموه وكثرته في الارض
الحارة السبخة وهي لا تناسب شجر العنب فالنخل في ارضه وموضعه انفع
وافضل من العنب فيها والعنب في ارضه ومعدنه افضل من النخل فيها والله
اعلم والمقصود ان هذين النوعين هما افضل انواع الثمار واكرمها وا
وانفعها فالجنة المشتملة عليهما من افضل الجنان ومع هذا فالانهار تجري
من تحت هذه الجنة وذلك اكمل لها واعظم في قدرها ومع ذلك فلم تعدم شيا
من انواع الثمار المشتهاة بل فيها من كل الثمرات ولكن معظمها ومقصود
ها النخل والاعناب فلا تنافي بين كونها من نخيل واعناب وفيها من كل
الثمرات ونظير هذا قوله تعالى واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لاحدهما
جنتين من اعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا الى قوله وكان له ثمر
وقد قيل ان الثمار ههنا وفي اية البقرة المراد بها المنافع والاموال والسياق
يدل على انها الثمار المعروفة لا غيرها لقوله هنا وله فيها من كل الثمرات
ثم قال فاصابها اي الجنة اعصار فيه نار فاحترقت وفي الكهف واحيط بثمره
فاصبح يقلب كفيه على ما انفق فيها وهي خاوية على عروشها وما ذلك الا
ثمار الجنة ثم قال تعالى واصابه الكبر هذا اشارة الى شدة حاجته الى جنته وتعلق

قلبه

قلبه بها من وجوه احدها انه قد كبرت سنه عن الكسب والتجارة ونحوها
الثاني ان ابن ادم عند كبره يشتد حرصه الثالث ان له ذرية فهو حريص
على بقا جنته لحاجته وحاجة ذريته الرابع انهم ضعفا فهم كل عليه لا ينفعونه
بقوتهم وتصرفهم الخامس ان نفقتهم عليه لضعفهم وعجزهم وهذا نهاية
ما يكون من تعلق القلب بهذه الجنة لخطرها في نفسها وشدة حاجته وحاجة
ذريته اليها فاذا تصورت هذه الحال وهذه الحاجة فكيف يكون مصيبة
هذا الرجل اذا اصاب جنته اعصار وهي الريح التي تستدير في الارض ثم
ترتفع في طبقات الجو كالعمود وفيها نار مرت بتلك الجنة فاحرقتها وصير
تها رمادا فصدق والله الحسن هذا مثل قل والله من يعقله من الناس
ولهذا نبه سبحانه على عظم هذا المثل وجذب القلوب الى التفكر فيه لشدة
حاجتها اليه فقال كذلك يبين الله لكم الايات لعلكم تتفكرون فلو فكر العا
قل في هذا المثل وجعله قبلة قلبه لكفاه وشفاه فهكذا العبد اذا عمل
طاعة ثم اتبعها بما يبطلها ويفسدها من معاصي الله كانت كالاعصار ذي
النار المحرق للجنة التي غرسها بطاعته وعمله الصالح ولولا ان هذه
المواضع اهم مما كلامنا بصدده من ذكر مجرد الطبقات لم نذكرها ولـ
كنها من اهم المهم والله المستعان الموفق لمرضاته فلو تصور العامل
بمعصية الله بعد طاعته هذا المعنى حق تصوره وتامله كما ينبغي لما سولت
له نفسه والله اغراق اعماله الصالحة واضاعتها ولكن لا بد ان يغيب
عنه علمه بذلك عند المعصية ولهذا استحق اسم الجهل فكل من عصى الله
فهو جاهل فان قيل الواو في قوله واصابه الكبر واو الحال ام واو العطف
واذا كانت واو العطف فعلام عطفت ما بعدها قلت فيه وجهان

احدهما انه واو الحال اختاره الزمخشري في المعنى ايود ان تكون له جنة
شانها كذا وكذا في حال كبر ومرض وضعف ذريته الثاني ان يكون الواو
للعطف على المعنى فان فعل التمني وهو قوله ايود احدكم يطلب الماضي
كثيرا فكان المعنى ايود لو كانت له جنة من نخيل واعناب واصابه
الكبر فجرى عليها ما ذكر وتامل كيف ضرب الله سبحانه هذا المثل
للمنفق المرائي الذي لم يصدر انفاقه عن الايمان بالصفوان الذي
عليه التراب فانه لم يبق شيئا اصلا بل ذهب بذره ضايعا لعدم ايمانه
واخلاصه ثم ضرب المثل لمن عمل بطاعة الله مخلصا نيته لله ثم عرض
له ما ابطل ثوابه بالجنة التي هي من احسن الجنان واطيبها وازهاها
ثم سلط الله عليها الاعصار الناري فاحرقها فان هذا نبت له شي واثمر
له عمله ثم احترق والاول لم يحصل له شي يدركه الحريق فتبارك من جعل
كلامه حياة للقلوب وشفا للصدور وهدى ورحمة ثم قال تعالى يا ايها
الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا
الخبيث منه تنفقون اضاف سبحانه الكسب اليهم وان كان هو الخالق
لافعالهم لانه فعلهم القايم بهم واسند الاخراج اليه لانه ليس فعلا
لهم ولا هو مقدور لهم فاضاف مقدورهم اليهم واضاف مفعوله الذي
لا قدرة لهم عليه اليه ففي ضمنه الرد على من سوى بين النوعين وسلب
قدرة العبد وفعله وتاثيره عنهما بالكلية وخص سبحانه هذين
النوعين وهما الخارج من الارض والحاصل بكسب التجارة دون غير
هما من المواشي اما بحسب الواقع فانهما كانا اغلب اموال القوم
اذ ذاك فان المهاجرين كانوا اصحاب تجارة وكسب والانصار

كانوا

كانوا اصحاب حرث وزرع فخص هذين النوعين بالذكر لحاجتهم
الى بيان حكمهما وعموم وجودهما واما لانهما اصول الاموال وما
عداهما فعنهما يكون ومنهما ينشا فان الكسب يدخل فيه التجارات كلها
على اختلاف اصنافها وانواعها من الملابس والمطاعم والالات
والامتعة وساير ما يتعلق به التجارة والرقيق والحيوانات والخارج
من الارض يتناول حبها وثمارها وركازها ومعدنها وهذان هما
اصول الاموال واغلبها على الارض فكان ذكرهما اهم ثم قال تعالى ولا
تيمموا الخبيث منه تنفقون فنهى سبحانه عن قصد اخراج الردي
كما هو عادة اكثر النفوس تمسك الجيد لها وتخرج الردي للفقير ونهيه
سبحانه عن قصد ذلك وتيممه فيه ما يشبه العذر لمن فعله لا عن
قصد وتيمم بل اما عن اتفاق او كان هو الحاضر اذ ذاك او كان
ما له من جنسه فان هذا لم يتيمم الخبيث بل تيمم اخراج بعض ما من الله عليه ومثل
قوله تنفقون موضع الحال اي لا تقصدوه منفقين منه ثم قال تعالى
ولستم باخذيه الا ان تغمضوا فيه اي لو كنتم انتم المستحقين له وبذل لكم
لم تاخذوه في حقوقكم الا ان تتسامحوا في اخذه وتترخصوا فيه من
قولهم اغمض فلان عن بعض حقه ويقال للبايع اغمض اي لا تستقص
كانك لم تبصر وحقيقته من اغماض الجفن فكان الرائي لكراهته له لا يملا
عينه منه بل يغض من بصره ويغمض عنه بعض نظره بغضا له ومنه
قول الشاعر ⁂ لم يفتنا بالوتر قوم ⁂ وللضيم رجال يرضون بالاغماض ⁂
وفيه معنيان احدهما كيف تبذلون لله وتهدون له ما لا ترضون
ببذله لكم ولا يرضى احدكم من صاحبه ان يهديه له والله احق

من تخير له خيار الاشيا وانفسها والثاني كيف تجعلون له ما تكرهون
لانفسكم وهو سبحانه طيب لا يقبل الا طيبا ثم ختم الاية بصفتين يقتضيهما
سياقها فقال واعلموا ان الله غني حميد فغناه وحمده يابى قبوله الردي
فان قابل الردي الخبيث اما ان يقبله لحاجته اليه واما ان نفسه لا تاباه لعدم
كمالها وشرفها واما الغني عنه الشريف القدر الكامل الاوصاف فانه
لا يقبله ثم قال تعالى الشيطان يعدكم الفقر ويامركم بالفحشا والله يعدكم مغفرة
منه وفضلا والله واسع عليم هذه الاية تتضمن الحض على الانفاق والحث
عليه بابلغ الالفاظ واحسن المعاني فانها اشتملت على بيان الداعي
الى البخل والداعي الى البذل والانفاق وبيان ما يدعو اداعي الامرين
فاخبر تعالى ان الذي يدعوهم الى البخل والشح هو الشيطان واخبر ان
دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر ان انفقوا اموالهم وهذا
هو الداعي الغالب على الخلق فانه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه
داعيا يقول له متى اخرجت هذا دعتك الحاجة اليه وافتقرت اليه بعد
اخراجه فامساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير فغناك خير لك من غناه
فاذا اصور له هذه الصورة امره بالفحشا وهي البخل الذي هو من اقبح
الفواحش وهذا اجماع من المفسرين ان الفحشا هاهنا هي البخل فهذا وعده
وهذا امره وهو الكاذب في وعده الغار الفاجر في امره فالمستجيب له
دعوته مغرور مخدوع مغبون فانه يدلي من يدعوه بغروره ثم يورده
شر الموارد كما قال ؞ دلاهم بغرور ثم اوردهم ؞ ان الخبيث لمن والاه غار ؞
هذا وان وعده له بالفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل
اخاه ولا محبة في بقائه غنيا بل لا شي احب اليه من فقره وحاجته وانما

وعده

وعده له بالفقر وامره اياه بالبخل ليسيء ظنه بربه ويترك ما يحبه ربه من
الانفاق لوجهه فيستوجب منه الحرمان واما الله سبحانه فانه يعد
عبده على انفاقه مغفرة منه لذنوبه وفضلا بان يخلف عليه اكثر مما
انفق واضعافه اما في الاخرة او في الدنيا والاخرة فهذا وعد
الله وذاك وعد الشيطان فلينظر البخيل والمنفق باي الوعدين هو
اوثق والى ايهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه والله يوفق من يشا ويخذل
من يشا وهو الواسع العليم وتامل كيف ختم هذه الاية بهذين الاسمين
فانه واسع الفضل واسع العطا عليم بمن يستحق فضله ومن يستحق عد
له فيعطي هذا بفضله ويمنع هذا بعدله وهو بكل شي عليم فتامل
هذا الكلام ولا تستطل بسط الكلام فيها فان لها شانا لا يعقله الا من
عقل عن الله وخطابه وفهم مراده وتلك الامثال نضربها للناس
وما يعقلها الا العالمون وتامل كيف ختم هذه السورة التي هي سنام القران
باحكام الاموال واقسام الاغنيا واحوالهم وكيف قسمهم الى ثلاثة اقسام
محسن وهم المتصدقون فذكر جزاهم وذكر مضاعفته وما لهم في قرض
اموالهم لكمال العوض ثم حذرهم ما يبطل ثواب صدقتهم ويحرقها بعد
استوابها وكمالها من المن والاذى وحذرهم مما ترتب اثرها عليها
ابتدا من الريا ثم امرهم بان يتقربوا اليه باطيبها ولا يتيمموا رديها
وخبيثها ثم حذرهم من الاستجابة لداعي البخل والفحش واخبر ان استجا
بتهم لدعوته وثقتهم بوعده اولى بهم ثم اخبر ان من حكمته التي يؤ
تيها من يشا من عباده وان من اوتيها فقد اوتي ما هو خير
منه وافضل من الدنيا كلها لانه سبحانه وصف الدنيا بالقلة فقال

قل متاع الدنيا قليل وقال ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا فدل على
ان ما يؤتيه عبده من حكمته خير من الدنيا وما عليها ولا يعقل هذا كل
احد بل لا يعقله الا من له لب وعقل زكي فقال وما يذكر الا اولو الالباب
ثم اخبر سبحانه ان كل ما انفقوه من نفقة او تقربوا اليه من نذر فانه يعلمه
فلا يضيع لديه بل يعلم ما كان لوجهه منه وما كان لغيره فيجازي بالمضاعفة
ما كان لوجهه ويبطل جزاء من عمل لغيره الى من عمل له فانه ظالم لنفسه وما له
من نصير ثم اخبر سبحانه عن احوال المتصدقين لوجهه في صدقاتهم
وانه يثيبهم عليها ان ابدوها او كتموها بعد ان تكون خالصة لوجهه
تعالى فقال ان تبدوا الصدقات فنعما هي اي فنعم شي هي وهذا مدح لها
موصوفة بكونها ظاهرة بادية فلا يتوهم مبديها بطلان اجره وثوابه
فلا يمنعه ذلك من اخراجها وينتظر بها زمن الاخفا فيفوت ويعترضه
الموانع ويحال بينه وبين قلبه او بينه وبين اخراجها ولا يؤخر صدقة العلانية
بعد حضور وقتها الى وقت السر وهذه كانت حال الصحابة رضي الله عنهم
ثم قال وان تخفوها وتؤتوها الفقرا فهو خير لكم فاخبر ان اعطاها
الفقير في خفية خير للمنفق من اظهارها واعلانها وتامل تقييده تعالى الاخفا
بايتاء الفقرا خاصة ولم يقل وان تخفوها فهو خير لكم فان من الصدقة ما لا
يمكن اخفاوها كتجهيز جيش وبنا قنطرة او اجرا نهر او غير ذلك واما
ايتاوها الفقرا ففي اخفائها من الفوائد الستر عليه وعدم تخجيله بين
الناس واقامته مقام الفضيحة وان يرى الناس ان يده هي اليد السفلى وانه
فقير لا شي له فيزهدون في معاملته ومعاوضته وهذا قدر زائد من
الاحسان اليه بمجرد الصدقة مع تضمنه الاخلاص وعدم المراياة وطلب

المحمدة

المحمدة من الناس فكان اخفاؤها للفقير خيرا من اظهارها بين الناس
ومن هذا مدح النبي صلى الله عليه وسلم صدقة السر واثنى على فاعلها واخبر
انه احد السبعة الذين هم في ظل عرش الرحمن يوم القيمة ولهذا جعله سبحانه
خيرا للمنفق واخبر انه يكفر عنه بذلك الانفاق من سيئاته ولا يخفى عليه
سبحانه اعمالكم ولا نياتكم فانه بما تعملون خبير ثم اخبر ان هذا الانفاق انما
هو نفقة لانفسكم يعود عليكم احوج ما كانوا اليه فكيف يبخل احدكم عن
نفسه بما نفعه مختص بها عايد اليها وان نفقة المومنين انما تكون ابتغا
وجهه خالصا لانها صادرة عن ايمانهم وان نفقتهم ترجع اليهم وافية كاملة
ولا يظلمون منها مثقال ذرة وصدر هذا الكلام فان هدى الله سبحانه
هو الهادي الموفق لمعاملته وايثار مرضاته وانه ليس على رسوله هدا
يتهم بل عليه ابلاغهم وهو سبحانه الذي يوفق من يشا لمرضاته ثم ذكر
سبحانه المصرف الذي توضع فيه الصدقة فقال للفقرا الذين احصروا
في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الارض يحسبهم الجاهل اغنيا من التعفف
تعرفهم بسيماهم لا يسالون الناس الحافا فوصفهم بست صفات احدها
الفقر الثانية حبسهم انفسهم في سبيله تعالى وجهاد اعدائه ونصرة دينه
واصل الحصر المنع فمنعوا انفسهم من تصرفها في اشغال الدنيا وقصروها
على بذلها لله وفي سبيله الثالثة عجزهم عن الاسفار للتكسب والضرب
في الارض هو السفر قال تعالى علم ان سيكون منكم مرضى واخرون يضربون
في الارض يبتغون من فضل الله وقال تعالى واذا ضربتم في الارض فليس
عليكم جناح ان تقصروا من الصلاة الرابعة شدة تعففهم وهو من
صبرهم واظهارهم الغنا حتى يحسبهم الجاهل لحالهم اغنيا من تعففهم

وعدم تعرضهم وكتمانهم حاجتهم الخامسة انهم يعرفون بسيماهم وهي العلامة
الدالة على حالتهم التي وصفهم الله بها وهذا لا ينافي حسبان الجاهل انهم اغنياء
لان الجاهل له ظاهر الامر والعارف هو المتوسم المتفرس الذي يعرف
الناس بسيماهم ولهذا وصف الجاهل بكونه يظنهم اغنياء وقال تعرفهم بسيماهم
ولم يقل يعرفون بسيماهم فالمتوسمون خواص المؤمنين كما قال تعالى ان في
ذلك لايات للمتوسمين السادسة تركهم مسالة الناس لا يسالونهم شيئا
والالحاف هو الالحاح والنفي متسلط عليهما معا اي لا يسالون ولا يلحفون
فليس يقع منهم سوال يكون بسببه الحاف وهذا كقوله
على لاحب لا يهتدى لمناره اي ليس فيه منار يهتدى به وفيه كالتنبيه على ان
المذموم من السوال هو سوال الالحاف فاما السوال بقدر الضرورة
من غير الحاف فالافضل تركه ولا يحرم فهذه ست صفات للمستحقين
الصدقة فالغاها اكثر الناس ولحظوا منها ظاهر الفقر وزيه من غير حقيقة
واما سائر الصفات المذكورة فعزيز اهلها ومن يعرفهم اعز والله يختص بفضله
من يشا فهولاء هم المحسنون في اموالهم القسم الثاني وهم الظالمون وهم
ضد هولاء وهم الذين يتخذون المحتاج المضطر فاذا دعتهم الحاجة اليهم
لم ينفسوا كربته الا بزيادة على ما يبذلونه له وهم اهل الربا فذكرهم تعالى بعد هذا
فقال يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا ان كنتم مومنين
فصدر الاية بالامر بتقوى الله المنافية للربا وامر بترك ما بقي من الربا بعد نزول
الاية وعفا لهم عما قبضوه به قبل التحريم ولولا ذلك لردوا ما قبضوه
قبل التحريم وعلق هذا الامتثال على وجود الايمان منهم والمعلق على الشرط
منتف عند انتفائه ثم اكد عليهم التحريم باغلظ شيء واشنعه وهي محاربة

المرابي

١٩

المرابي لله ولرسوله فقال فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ففي ضمن
هذا الوعيد ان المرابي محارب لله ولرسوله قد اذنه الله بحربه ولم يجي هذا الوعيد
في كبيرة سوى الربا وقطع الطريق والسعي في الارض بالفساد لان كل وا
حد منهما مفسد في الارض قاطع الطريق على الناس بقهره لهم وتسلطه عليهم
هذا بامتناعه من تفريج كرباتهم الا بتحميلها كربات اشد منها فاخبر عن
قطاع الطريق بانهم يحاربون الله ورسوله واذن هولاء ان لم يتركوا الحرب
وحرب رسوله ثم قال وان تبتم فلكم رؤوس اموالكم يعني ان تركتم الربا وتبتم
الى الله منه وقد عاقدتم عليه فانما لكم رؤوس اموالكم لا تزدادون عليها
فتظلمون الاخذ ولا تنقصون منها فيظلمكم من اخذها فان كان هذا
القابض معسرا فالواجب انظاره الى ميسرة وان تصدقتم عليه وابراتموه
فهو افضل لكم وخير لكم فان ابت نفوسكم وسمحت بالعدل الواجب او الفضل
المندوب فذكروها يوما ترجعون فيه الى الله وتلقون ربكم فيوفيكم جزاء
اعمالكم احوج ما انتم اليه فذكر سبحانه المحسن وهو المتصدق ثم عقبه بالظالم
الدين وهو المرابي ثم ذكر العادل في اية التداين فقال يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين
الى اجل مسمى الاية ولو ان هذه الاية تستدعي سفرا وحدها لذكرت
بعض تفسيرها والغرض انما هو التنبيه والاشارة وقد ذكرنا العادل وهو
اخذ راس المال من غريمه لا بزيادة ولا نقصان ثم ختم السورة بهذه الخاتمة
العظيمة التي هي من كنز تحت عرشه والشيطان يفر من البيت التي تقرا فيه وفيها
من العلوم والمعارف وقواعد الاسلام واصول الايمان ومقامات الاحسان
ما يستدعي بيانه كتابا مفردا والمقصود الكلام على طبقات الخلايق في الدار
الاخرة فلنعد الى المقصود الاول فان هذا من سبق القلم ولعله اهم مما

عن بصدده فهذه الطبقات الاربعة من طبقات الامة هم اهل الاحسان والنفع
المتعدي وهم العلما وايمة العدل واهل الجهاد واهل الصدقة وبذل الاموال
في مرضات الله فهولاء ملوك الاخرة وصحايف حسناتهم متزايدة تملى فيها
الحسنات وهم في بطون الارض ما دامت اثارهم في الدنيا فيا لها من نعمة ما
اجلها وكرامة ما اعظمها يختص الله بها من يشا من عباده **الطبقة
الثامنة** طبقة من فتح الله له بابا من ابواب الخير القاصر على نفسه كالصلاة
والحج والعمرة وقراة القران والصوم والاعتكاف والذكر ونحوها مضافا
الى ادا فرايض الله عليه فهو جاهد في تكثير حسناته وملا صحيفته بها واذا
عمل خطية تاب الى الله منها فهذا على خير عظيم وله ثواب امثاله من اعمال
الاخرة ولكن ليس له الا عمله فاذا مات طويت صحيفته بموته فهذه طبقة اهل
الربح والحظوة ايضا عند الله **الطبقة التاسعة** طبقة اهل النجاة وهي
طبقة من يودي فرايض الله ويترك محارمه مقتصرا على ذلك لا يزيد عليه
ولا ينقص منه فلا يتعدى الى ما حرم الله عليه ولا يزيد على ما فرض الله عليه وهذا
من المفلحين بضمان رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن اخبره بشرايع الاسلام
والله لا ازيد على هذا ولا انقص منه فقال افلح ان صدق واصحاب هذه الطبقة
مضمون لهم على الله تكفير سياتهم اذا ادوا فرايضه واجتنبوا الكباير
ما نهاهم عنه قال تعالى ان تجتنبوا كباير ما تنهون عنه نكفر عنكم سياتكم وند
خلكم مدخلا كريما وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال الصلوات الخمس ورمضان
الى رمضان والجمعة الى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم يغش كبيرة فان غشي
اهل الطبقة كبيرة وتابوا منها توبة نصوحا لم يخرجوا من طبقتهم وكانوا
بمنزلة من لا ذنب له فتكفير الصغاير يقع بشيين احدهما الحسنات الماحية

والثاني

والثاني اجتناب الكباير وقد نص عليهما سبحانه في كتابه فقال تعالى اقم الصلاة
طرفي النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيات وقال ان تجتنبوا
كباير ما تنهون عنه نكفر عنكم سياتكم **الطبقة العاشرة**
طبقة قوم اسرفوا على انفسهم وغشوا الكباير ما نهى الله عنه لكن رزقوا التوبة
النصوح قبل الموت فماتوا على توبة صحيحة فهولاء ناجون من عذاب
الله اما قطعا عند قوم واما ظنا عند قوم رجاء عند اخرين وهم موكلون
الى المشية ولكن نصوص القران والسنة تدل على نجاتهم وقبول توبتهم وهو
وعد وعدهم الله اياه والله لا يخلف الميعاد فان قيل فما الفرق بين
هذه الطبقة والتي قبلها فان الله اذا كفر عنهم سياتهم واثبت لهم بكل سيئة
حسنة كانوا كمن قبلهم او ارجح قيل تقدم الكلام على هذه المسالة بما فيه كفاية
في غير هذا الموضع فعليك بمعاودته هنالك وكيف يستوي عند الله
من انفق عمره في طاعة الله ولم يغش كبيرة ومن لم يدع كبيرة الا ارتكبها
وفرط في اوامره ثم تاب فهذا غايته ان تمحي سياته ويكون لا له ولا عليه
واما ان يكون هو ومن قبله سوا او ارجح منه فكلا **الطبقة
الحادية عشر** طبقة اقوام خلطوا عملا صالحا واخر سيئا فعملوا حسنات
وكباير ولقوا الله مصرين عليها غير تايبين منها لكن حسناتهم اغلب من
سياتهم فاذا وزنت بها رجحت كفة الحسنات فهولاء ايضا ناجون فايزون
قال تعالى والوزن يوميذ الحق فمن ثقلت موازينه فاوليك هم المفلحون
ومن خفت موازينه فاوليك الذين خسروا انفسهم بما كانوا باياتنا يظلمون
قال حذيفة وعبد الله ابن مسعود وغيرهما من الصحابة يحشر الناس يوم
القيمة ثلاثة اصناف فمن رجحت حسناته على سياته بواحدة دخل الجنة

ومن رجحت سياته على حسناته بواحدة دخل النار ومن استوت حسناته وسياته
فهو من اهل الاعراف وهذه الموازنة تكون بعد التقاص واستيفا المظلو
مين حقوقهم من حسناته فاذا بقي له منها وزن هو وسياته لكن هنا مسئلة
وهي اذا وزنت السيات بالحسنات فرجحت الحسنات هل تلغي المرجوح جملة ويصير
التاثير للراجح فيثاب على حسناته كلها او يسقط من الحسنات ما قابلها من الحسنات
المرجوحة ويبقى التاثير للرجحان فيثاب عليه وحده فيه قولان هذا
عند من يقول بالموازنة واما من ينفي ذلك فلا عبرة عنده بهذا وانما هو
موكول الى محض المشية وعلى القول الاول فيذهب اثر السيات جملة بالحسنات
الراجحة وعلى القول الثاني يكون تاثيرها في نقصان ثوابه لا في حصول
العقاب له ويترجح هذا القول الثاني بان السيات لو لم تحبط ما قابلها من
الحسنات فكان العمل والتاثير للحسنات كلها لم يكن فرق بين وجودها وعدمها
ولكان لا فرق بين المحسن الذي محض عمله حسنات ومن خلط عملا صالحا
وقد يجاب عن هذا بانها اثرت في نقصان ثوابه ولا بد فانه لو اشتغل في
زمن ايقاعها بالحسنات لكان ارفع لدرجاته واعظم لثوابه واذا كان
كذلك فقد ترجح القول الاول بان الحسنات لما غلبت السيات ضعف
تاثير المغلوب المرجوح وصار الحكم للغالب دونه لاستهلاكه في جنبه كما
يستهلك يسير النجاسة في الما الكثير والما اذا بلغ قلتين لم يحمل الخبث والله
اعلم الطبقة الثانية عشر قوم تساوت حسناتهم وسياتهم فتقابل
اثراهما فتقاوما فمنعتهم حسناتهم المساوية من دخول النار وسياتهم المساوية
من دخول الجنة فهولاء هم اصحاب اهل الاعراف لم يفضل لاحدهم حسنة يستحق
بها الرحمة من ربه ولم يفضل عليه سيئة فيستحق بها العذاب وقد وصف الله اهل

هذه

الاعراف

هذه الطبقة في سورة الاعراف بعد ان ذكر دخول اهل النار النار وتلاعنهم
فيها ومخاطبة اتباعهم لروسائهم وردهم عليهم ثم مناداة اهل الجنة اهل النار
فقال تعالى وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا اصحاب
الجنة ان سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون واذا صرفت ابصارهم تلقاء
اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين فقوله تعالى وبينهما حجاب اي
بين اهل الجنة والنار حجاب قيل هو السور الذي ضرب بينهم له باب باطنه فيه
الرحمة وظاهره من قبله العذاب باطنه الذي يلي المومنين فيه الرحمة وظاهره
الذي يلي الكفار من جهته العذاب والاعراف جمع عرف وهو المكان المرتفع
وهو سور عال بين الجنة والنار وقيل هو هذا السور الذي يضرب بينهم
وقيل جبال بين الجنة والنار عليها اهل الاعراف قال حذيفة وعبد الله بن عباس
هم قوم استوت حسناتهم وسياتهم فقصرت بهم سياتهم عن الجنة وتجاوزت
بهم حسناتهم عن النار فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما يشا ثم يدخلهم الجنة
بفضل رحمته قال عبد الله ابن المبارك انا ابو بكر الهذلي قال كان سعيد ابن
جبير يحدث عن ابن مسعود قال يحاسب الناس يوم القيمة فمن كانت حسناته
اكثر من سياته بواحدة دخل الجنة ومن كانت سياته اكثر من حسناته بواحدة
دخل النار ثم قرا قوله تعالى فمن ثقلت موازينه فاولئك هم المفلحون ومن خفت
موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم ثم قال ان الميزان يخف بمثقال ذرة او
يرجح قال ومن استوت حسناته وسياته كان من اصحاب الاعراف فوقفوا
على الصراط ثم عرفوا اهل الجنة واهل النار فاذا نظروا الى الجنة نادوا سلام
عليكم واذا صرفوا ابصارهم الى اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم
الظالمين فاما اصحاب الحسنات فانهم يعطون نورا يمشون به بين ايديهم

وبايمانهم ويعطي كل عبد يومئذ نورا فاذا اتوا على الصراط سلب الله نور كل
منافق ومنافقة فلما راى اهل الجنة ما لقي المنافقون قالوا ربنا اتمم لنا نورنا
واما اصحاب الاعراف فان النور لم ينزع من ايديهم ومنعتهم سيئاتهم ان
يمضوا وبقي في قلوبهم الطمع اذ لم ينزع النور من ايديهم يقول الله تعالى لم يد
خلوها وهم يطمعون فكان الطمع للنور الذي في ايديهم ثم ادخلوا الجنة
فكانوا اخر اهل الجنة دخولا يريد اخر اهل الجنة دخولا ممن لم يدخل النار وقيل
هم قوم خرجوا في الغزو بغير اذن ابائهم فقتلوا فاعتقوا من النار بقتلهم في
سبيل الله وحبسوا عن الجنة لمعصية ابائهم وهذا من جنس القول الاول
وقيل هم قوم رضي عنهم احد الابوين دون الاخر يحبسون على الا
عراف حتى يقضي الله بين الناس ثم يدخلهم الجنة وهو من جنس ما قبله فلا تناقض
بينهما وقيل هم اصحاب الفترة واطفال المشركين وقيل هم اولو الفضل
من المومنين علوا على الاعراف فيطلعون على اهل النار واهل الجنة
جميعا وقيل هم ملايكة لا من بني ادم والثابت عن الصحابة هو القول
الاول وقد رويت فيه اثار كثيرة مرفوعة لا تكاد تثبت اسانيدها واثار
الصحابة في ذلك المعتمد وقد اختلف في تفسير الصحابي هل له حكم المرفوع
او الموقوف على قولين والاول اختيار ابي عبد الله الحاكم والثاني هو
الصواب ولا نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يعلم انه قاله وقوله تعالى
وعلى الاعراف رجال يعرفون صريح في انهم من بني ادم ليسوا من الملايكة
وقوله يعرفون كلا بسيماهم يعني يعرفون الفريقين بسيماهم ونادوا اصحاب
الجنة ان سلام عليكم اي نادوا اهل الاعراف اهل الجنة بالسلام وقوله
لم يدخلوها وهم يطمعون الضميران في الجملتين لاصحاب الاعراف

لم يدخلوا

لم يدخلوا الجنة بعد وهم يطمعون في دخولها قال ابو العالية ما جعل الله ذلك
الطمع فيهم الا كرامة يريدها بهم قال الحسن الذي جعل الطمع في قلوبهم
يوصلهم الى ما يطمعون وفي هذا رد على قول من قال انهم افاضل المومنين
علوا على الاعراف يطالعون احوال الفريقين فعاد الصواب الى تفسير الصحابة
وهم اعلم الامة بكتاب الله ومراده منه ثم قال تعالى واذا صرفت ابصارهم
تلقاء اصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين هذا دليل على
انهم بمكان مرتفع بين الجنة والنار فاذا اشرفوا على اهل الجنة نادوهم بالسلام
وطمعوا في الدخول اليها واذا اشرفوا على اهل النار سالوا الله ان لا يجعلهم معهم
ثم قال تعالى ونادى اصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم يعني من الكفار الذين
في النار فقالوا لهم ما اغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون يعني ما نفعكم جمعكم
وعشيرتكم وتحزبكم على اهل الحق ولا استكباركم وهذا اما نفي واما
استفهام توبيخ وهو ابلغ وافخم ثم نظروا الى الجنة فراوا من فيها من الضعفا
الذين كان الكفار يسترذلونهم في الدنيا ويزعمون ان الله لا يختصهم دونهم
بفضله كما لم يختصهم دونهم في الدنيا فيقول لهم اهل الاعراف اهولاء الذين
اقسمتم ايها المشركون ان الله لا ينالهم برحمة فها هم في الجنة يتمتعون ويتنعمون
وفي رياضها يحبرون ثم يقال لاهل الاعراف ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا
انتم تحزنون وقيل ان اصحاب الاعراف اذا عيروا الكفار واخبروهم انهم
لن تغني عنهم جموعهم واستكبارهم للكفار بتخلفهم عن الجنة واقسموا ان
الله لا ينالهم برحمة لما راوا من تخلفهم عن الجنة وانهم يصيرون الى النار فتقول
لهم الملايكة حينئذ اهولاء الذين اقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة
لا خوف عليكم ولا انتم تحزنون والقولان محتملان والله اعلم فهولاء

الطبقة ١٣

هم اهل الجنة الذين لم تمسهم النار **الطبقة الثالثة عشر**
طبقة اهل المحنة والبلية نعوذ بالله وان كانت آخرتهم الى عفو وخير وهم
قوم مسلمون خفت موازينهم ورجحت سياتهم على حسناتهم فغلبتها السيات
فهذه الطبقة هي التي اختلفت فيها اقاويل الناس وكثر فيها خوضهم وتشعبت
فيها مذاهبهم وتشتت اراهم فطايفة كفرتهم واوجبت لهم النار والخلود
فيها وهذا مذهب اكثر الخوارج بل يكفرون من هو احسن حالا منهم
وهو مرتكب الكبيرة الذي لم يتب منها ولو استغرقها حسناته وطايفة
اوجبت لهم الخلود في النار ولم تطلق عليهم اسم الكفر بل سمتهم منافقين وهذا
المذهب ينسب الى البكرية وهو اتباع بكر ابن اخت عبد الواحد وطايفة
نزلتهم منزلة بين منزلتي الكفار والمومنين فجعلوا اقسام الخلق ثلاثة
مومنين وكفارا وقسما لا مومنين ولا كفارا بل بينهما فاوجبت لهم الخلود
في النار وهذا هو الراي الذي اتفق عليه اهل الاعتزال وهو احد اصول
هم الخمس التي هي قواعد مذهبهم وهي التوحيد الذي مضمونه جحد صفات
الخالق ونعوت كماله والتعطيل المحض والعدل الذي مضمونه نفي قدرة
الله وانه لا قدرة له على افعال الحيوانات بل هي خارجة عن ملكه وخلقه
وقدرته وانه يريد ما لا يكون ويكون ما لا يريد وانه لا يقدر ان
يهدي ضالا ولا يضل مهتديا ولا يجعل المصلي مصليا والذاكر ذاكرا
والطايف طايفا تعالى الله عن افكهم وشركهم علوا كبيرا والمنزلة بين المنزلتين
التي مضمونها ايجاب الخلود في النار للمسلم المبالغ في طاعة ربه الذي افنى عمره
في عبادته وطاعته ومات مصرا على كبيرة واحدة تعالى الله عما ينسبوه اليه
من ذلك وجل عن هذا الافترا والامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي

مضمونه

مضمونه الخروج على ايمة الجور بالسيف وخلع اليد من طاعتهم ومفارقة جماعة
المسلمين ولا اصل الخامس النبوة مع انهم لم يوفوها حقها بل هضموها
غاية الهضم من وجوه كثيرة ليس هذا موضعها والمقصود ان مذهبهم تخليد
هذه الطبقة في النار وان لم يسموهم كفارا فوافقوا الخوارج في الحكم وخالفوهم
في الاسم ولهذا تسمى هذه المسائل من مسايل الاسما والاحكام فهذه ثلاث فرق
توجب لهذه الطبقة الخلود في النار وقالت المرجية على اختلاف ارايهم لا ندري
ما يفعل الله بهم فيجوز ان يعذبهم كلهم وان يعفو عنهم كلهم وان يعذب بعضهم
ويعفو عن بعضهم غير انهم لا يخلد احدا منهم في النار فيجوز وان يلحق بعضهم بمن
ترجحت حسناته على سياته بل يجوز وان يرفع عليه في الدرجة فهم موكولون
عندهم الى محض المشية لا يدرى ما يفعل الله بهم بل نرجي امرهم الى الله وحكمه وهذا
قول كثير من المتكلمين والفقها والصوفية وغيرهم فهذه الاقوال التي يعرفها
اكثر الناس ولا يحكي اهل الكلام غيرها وقول الصحابة والتابعين وايمة الحديث
لا يعرفونه ولا يحكونه وهو الذي ذكرناه عن ابن عباس وحذيفة وابن
مسعود رضي الله عنهم ان من ترجحت سياته بواحدة دخل النار وهولاء هم
القسم الذين جات فيهم الاحاديث الصحيحة الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه
وسلم بانهم يدخلون النار فيكونون فيها على مقدار اعمالهم فمنهم من تاخذه النار
الى كعبيه ومنهم من تاخذه الى انصاف ساقيه ومنهم من تاخذه الى ركبتيه ويلبثون
فيها على قدر اعمالهم ثم يخرجون منها فينبتون على انهار الجنة فيفيض عليهم اهل
الجنة من الماء حتى تنبت اجسادهم ثم يدخلون الجنة وهم الطبقة الذين يخرجون
من النار بشفاعة الشافعين وهم الذين يامر الله تعالى سيد الشفعا مرارا ان
يخرجهم من النار بما معهم من الايمان واخبار النبي صلى الله عليه وسلم انهم يكونون

فيها على قدر اعمالهم مع قوله تعالى جزاء بما كنتم تعملون وهل تجزون الا ما كنتم
تعملون وقوله وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون واضعاف ذلك من
نصوص القرآن والسنة تدل على ما قاله افضل الامة واعلمها بالله وكتابه
واحكام الدارين اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والعقل والفطرة تشهد له
وهو مقتضى حكمة العزيز الحكيم الذي بهرت حكمته العقول فليس للامر
مسببا خارجا عن الضبط والحكمة بل مربوط بالاسباب والحكم مرتب عليها اكمل
ترتيب جار على نظام اقتضاه السبب واستدعته الحكمة واي طريق سلكها سالك
غير هذه من الطرق المتقدمة افضت به الى ترك بعض النصوص ولا
بد فانها تتناقض في حقه لما اصله من الاصل الذي لا تلتئم عليه النصوص
فلا بد ان يرد بعضها ببعض ويستشكلها ويطلب لها مستنكر التاويلات
ووجوه التحريفات كما رد الخوارج والمعتزلة النصوص المتواترة الدالة على
خروج اهل الكبائر من النار بالشفاعة فكذبوا بها وقالوا لا سبيل لمن دخل
النار الى الخروج منها بشفاعة ولا غيرها ولما بهرتهم نصوص الشفاعة
وصاح بهم اهل السنة وائمة الاسلام من كل قطر وجانب ورموهم بسهام
الرد عليهم احالوا بالشفاعة على زيادة الثواب فقط لا على الخروج من النار
فردوا السنة المتواترة قطعا وصاروا مضغة في افواه الامة وعارا
في فرقها فان امر الشفاعة اظهر عند الامة من ان يقبل شكا وتنازعا
وهو عندهم مثل الصراط والحساب ونحوهما فما يعلم اخبار الرسول به قطعا
ولكن انما اتى القوم لانهم في غاية البعد عن اجابة الرسول صلى الله عليه وسلم
اجانب منه ليسوا من الورثة واما الخوارج فكذبوا الصحابة صريحا واما
المرجئة فانهم يجوزون ان لا يدخل النار احد من اهل التوحيد وهذا

خلاف

خلاف المعلوم المتواتر من نصوص السنة بدخول بعض اهل الكبائر النار ثم
خروجهم منها بالشفاعة ومع هذا التواتر الذي لا يمكن دفعه لا يجوز ان
يقال بجواز ان لا يدخل احد منهم النار بل لا بد من دخول بعضهم وذلك البعض
هو الذي خفت موازينه ورجحت سيئاته كما قاله الصحابة رضي الله عنهم وحكى ابو
محمد ابن حزم هذا اجماعا من اهل السنة ولولا ان المقصود ذكر الطبقات
لذكرنا ما لهذه المذاهب وما عليها وبينا تناقض اهلها وما وافقوا فيه
الحق وما خالفوه بالعلم والعدل لا بالجهل والظلم فان كل طائفة منهم معها
حق وباطل فالواجب موافقتهم فيما قالوه من الحق ورد ما قالوه من البا
طل ومن فتح له بهذه الطريق فقد فتح له من العلم والدين كل باب ويسر عليه
فيهما الاسباب وبالله المستعان

الطبقة الرابعة عشر

قوم لا طاعة لهم ولا معصية ولا كفر ولا ايمان وهؤلاء اصناف منهم من لم تبلغه الد
عوة بحال ولا سمع لها بخبر ومنهم المجنون الذي لا يعقل شيئا ولا يميز ومنهم الاصم
الذي لا يسمع شيئا ابدا ومنهم اطفال المشركين الذين ماتوا قبل ان يميزوا شيئا فاختلفت
الامة في حكم هذه الطبقة اختلافا كثيرا والمسالة التي وسعوا فيها الكلام هي مسئلة
اطفال المشركين واما اطفال المسلمين فقال الامام احمد لم يختلف فيهم احد يعني انهم
في الجنة وحكى ابن عبد البر عن جماعة انهم توقفوا فيهم وان جميع الولدان تحت المشيئة
قال وذهب الى هذا القول جماعة كثيرة من اهل الفقه والحديث منهم حماد بن زيد
وحماد بن سلمة وابن المبارك واسحق ابن راهويه قالوا وهو شبه ما رسم مالك
في موطائه في ابواب القدر وما اورده من الاحاديث في ذلك وعلى ذلك اكثر
اصحابه وليس عن مالك فيه شيء منصوص الا ان المتاخرين من اصحابه ذهبوا الى ان
اطفال المسلمين في الجنة واطفال المشركين خاصة في المشيئة واما اطفال المشركين

الطبقة ع
بلغ

احدها

فللناس فيهم ثمانية مذاهب احدها الوقف فيهم وترك الشهادة بانهم في الجنة
او في النار بل يوكل علمهم الى الله تعالى ويقال الله اعلم بما كانوا عاملين واحتج هولا
بحجج منها ما خرجا في الصحيحين من حديث ابي هريرة ان رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال ما من مولود الا يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه كما تنتج
البهيمة من بهيمة جمعا هل تحس فيها من جدعا قالوا يا رسول الله افرايت من يموت
وهو صغير قال الله اعلم بما كانوا عاملين ومنها ما في الصحيحين ايضا عن ابن
عباس ان النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن اولاد المشركين فقال الله اعلم بما كانوا
عاملين وفي صحيح ابي حاتم ابن حبان من حديث جرير ابن حازم قال سمعت
ابا رجا العطاردي قال سمعت ابن عباس يقول وهو على المنبر قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم لا يزال امر هذه الامة قواما او مقاربا ما لم يتكلموا في الولدان
والقدر قال ابو حاتم الولدان اراد به اطفال المشركين وفي استدلال هذه
الفرقة على ما ذهبت اليه من الوقف بهذه النصوص نظر فان النبي صلى الله عليه وسلم
لم يجب فيهم بالوقف وانما وكل علم ما كانوا يعملون لو عاشوا الى الله والمعنى
الله اعلم بما كانوا عاملين لو عاشوا فهو سبحانه يعلم القابل منهم للهدى
العامل به لو عاش والقابل منهم للكفر المؤثر له لو عاش ولكن لا يدل هذا
على انه يجزيهم بمجرد علمه فيهم بلا عمل يعملونه وانما يدل على انه سبحانه يعلم منهم ما هم
عاملون بتقدير حياتهم وهذا الجواب خرج من النبي صلى الله عليه وسلم على وجهين
احدهما جواب لهم اذ سالوه عنهم ما حكمهم فقال الله اعلم بما كانوا عاملين
وهذا الوجه يتضمن ان الله سبحانه يعلم من يؤمن منهم ومن يكفر بتقدير الحياة
واما المجازاة على العلم فلم يتضمنها جوابه صلى الله عليه وسلم وفي صحيح ابي عوانة الا
سفرايني عن هلال ابن حبان عن عكرمة عن ابن عباس كان النبي صلى الله عليه وسلم

في بعض

في بعض مغازيه فساله رجل ما تقول في اللاهين فسكت عنه فلما فرغ من غزوة
الطائف اذا هو بصبي يبحث في الارض فامر مناديه فنادى اين السائل عن
اللاهين فاقبل الرجل فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاطفال وقال الله اعلم
بما كانوا عاملين والوجه الثاني جواب لهم حين اخبرهم انهم من ابائهم
فقالوا بلا عمل فقال الله اعلم بما كانوا عاملين كما رواه ابو داود عن عائشة رضي
الله عنها قالت قلت يا رسول الله ذراري المومنين فقال هم من ابائهم فقلت يا
رسول الله بلا عمل قال الله اعلم بما كانوا عاملين قلت يا رسول الله فذراري
المشركين قال هم من ابائهم فقلت يا رسول الله بلا عمل قال الله اعلم بما كانوا
عاملين ففي هذا الحديث ما يدل على ان الذين يلحقون بابائهم منهم هم الذين
علم الله انهم لو عاشوا لاختاروا الكفر وعملوا به فهولاء مع ابائهم ولا
يقتضي ان كل واحد من الذرية مع ابيه في النار فان الكلام في هذا الجنس سوال
وجواب والجواب يدل على التفصيل فان قوله الله اعلم بما كانوا عاملين
يدل على انهم متباينون في التبعية بحسب تباينهم في معلوم الله فيهم بقي ان
يقال فالحديث يدل على انهم يلحقون بابائهم من غير عمل ولهذا فهمت ذلك
منه عائشة فقالت بلا عمل فاقرها عليه وقال الله اعلم بما كانوا عاملين ويجاب
عن هذا بان الحديث انما دل على انهم يلحقون بهم بلا عمل عملوه في الدنيا
وهو الذي فهمته عائشة ولا ينفي هذا ان يلحقوا بهم باسباب اخر يمتحنهم
بها في عرصات القيمة كما سياتي بيانه ان شاء الله فحينئذ يلحقون بابائهم
ويكونون منهم بلا عمل عملوه في الدنيا وعائشة رضي الله عنها انما استشكلت
لحاقهم بهم بلا عمل عملوه مع الاباء واجابها النبي صلى الله عليه وسلم بان الله سبحانه
يعلم منهم ما هم عاملون ولم يقل انه يعذبهم بمجرد علمه فيهم وهذا ظاهر بحمد الله

لا اشكال فيه واما حديث ابي رجاء العطاردي عن ابن عباس ففي القلب من
رفعه شيء وان خرجه ابن حبان في صحيحه وهو يدل على ذم من تكلم فيهم بغير علم
او ضرب النصوص بعضها ببعض فيهم كما ذم من تكلم في القدر ونحوه بمثل ذلك واما
من تكلم فيهم بعلم وحق فلا. المذهب الثاني انهم في النار وهذا
قول جماعة من المتكلمين واهل التفسير واحد الوجهين لاصحاب احمد وحكاه
القاضي نصا عن احمد واحتج هؤلاء بحديث عائشة المتقدم واحتجوا بما رواه
ابو عقيل يحيى ابن المتوكل عن بهية عن عائشة سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم
عن اولاد المسلمين اين هم قال في الجنة وسالته عن اولاد المشركين اين هم يوم
القيمة قال في النار فقلت لم يدركوا الاعمال ولم يجر عليهم الاسلام قال ربك
اعلم بما كانوا عاملين قلت يحيى ابن المتوكل لا يحتج بحديثه فانه في غاية من
الضعف واما حديث عائشة المتقدم فهو من حديث عمر ابن ذر تفرد به عن
يزيد ابن ابي امية ان البرا ابن عازب ارسل الى عائشة يسالها عن الاطفال
فذكرت الحديث هكذا قال سالم ابن قتيبة عنه وقال غيره عن عمر ابن ذر عن
يزيد عن رجل عن البرا ورواه الامام احمد في مسنده من حديث عتبة ابن
حمزة ابن حبيب حدثني عبد الله ابن ابي قيس مولى غطيف انه سال عائشة فذكر
الحديث وعبد الله هذا ينظر في حاله وليس بالمشهور واحتجوا بما رواه عبد الله
ابن احمد في مسند ابيه نا عثمان ابن ابي شيبة عن محمد ابن فضيل ابن غزوان
عن محمد ابن عثمان عن زاذان عن علي قال سالت خديجة رسول الله صلى
الله عليه وسلم عن ولدين لها ماتا في الجاهلية قال هما في النار فلما راى الكراهية
في وجهها قال لو رايت مكانهما لابغضتيهما قالت يا رسول الله فولدي منك
قال ان المومنين واولادهم في الجنة وان المشركين واولادهم في النار ثم قرا

احدها

الثاني

ولم تجر عليهم الاقلام

والذين

والذين امنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان وهذا معلول من وجهين احدهما ان محمد
ابن عثمان مجهول الثاني ان زاذان لم يدرك عليا وقال احمد ثنا ابن عدي عن داود ابن
هند عن الشعبي عن علقمة عن سلمة ابن قيس الاشجعي قال اتيت انا واخي النبي صلى
الله عليه وسلم فقلنا ان امنا ماتت في الجاهلية وكانت تقري الضيف
لنا في الجاهلية لم يبلغوا الحنث فقال الوائدة والموؤدة في
النار الا ان يدرك الوائدة الاسلام فتسلم وهذا اسناد لا باس به واحتجوا
ايضا بحديث خديجة انها سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اولادها الذين
ماتوا في الشرك فقال لو ان شئت لاسمعتك تضاغيهم في النار قال شيخنا هذا
حديث باطل موضوع واحتجوا بما روى البخاري في صحيحه من حديث احتجاج
الجنة والنار عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال واما النار فينشئ الله لها خلقا
يسكنهم اياها قالوا فهلا ينشئ للنار بغير عمل فلان يدخلها من ولد
في الدنيا بين كافرين اولى وهذه حجة باطلة فان هذه اللفظة وقعت غلطا
من بعض الرواة وبينها البخاري رحمه الله في الحديث الاخر وهو الصواب
فقال في صحيحه حدثني عبد الله ابن محمد نا عبد الرزاق عن معمر عن همام
عن ابي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم تحاجت الجنة والنار فقالت النار
اوثرت بالمتكبرين والمتجبرين وقالت الجنة ما لي لا يدخلني الا ضعفا الناس
وسقطهم قال الله عز وجل للجنة انت رحمتي ارحم بك من اشاء من عبادي وقال
للنار انت عذابي اعذب بك من اشاء من عبادي ولكل واحدة منهما ملوها
فاما النار فلا تمتلي حتى يضع رجله فتقول قط قط فهنالك تمتلي ويزوى بعضها
الى بعض ولا يظلم الله من خلقه احدا واما الجنة فينشئ الله لها خلقا فهذا هو
الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا ريب وهو الذي ذكره في التفسير

وقال في باب ما جا في قول الله تعالى ان رحمة الله قريب من المحسنين نا عبد الله ابن
سعد نا يعقوب نا ابي عن صالح ابن كيسان عن الاعرج عن ابي هريرة عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال اختصمت الجنة والنار الى ربهما فقالت الجنة يا رب ما لها
لا يدخلها الا ضعفا الناس وسقطهم وقالت النار ــ فقال للجنة انت رحمتي وقال
للنار انت عذابي اعذب بك من اشا ولكل واحدة منكما ملوها قال فاما الجنة
فان الله تعالى لا يظلم من خلقه احدا وانه ينشئ للنار من يشا فيلقون فيها فتقول
هل من مزيد ويلقون فيها فتقول هل من مزيد ثلاثا حتى يضع قدمه فيها
فتمتلي ويرد بعضها الى بعض وتقول قط قط فهذا غير محفوظ وهو مما انقلب
لفظه على بعض الرواة كما انقلب على بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم ان بلالا يوذن
بليل فكلوا واشربوا حتى يوذن ابن مكتوم فقال ان ابن ام مكتوم يوذن
بليل فكلوا واشربوا حتى يوذن بلال وله نظاير وحديث الاعرج عن ابي
هريرة هذا لم يحفظ كما ينبغي وسياقه يدل على ان راويه لم يقم متنه بخلاف حديث
همام عن ابي هريرة واحتجوا بما رواه ابو داود عن عامر الشعبي قال قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم والموودة في النار قال يحيى ابن زكريا
فحدثني ابو اسحق السبيعي ان عامرا حدثه بذلك عن علقمة عن ابن مسعود
عن النبي صلى الله عليه وسلم وسياتي الجواب عن هذا الحديث ان شاء الله تعالى

والمذهب **الثالث** انهم في الجنة وهذا قول طائفة من
المفسرين والمتكلمين وغيرهم واحتج هولا بما رواه البخاري في صحيحه عن سمرة
ابن جندب قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني مما يكثر ان يقول للصحابة
هل راى احد منكم رويا قال فيقص عليه من شاء الله ان يقص وانه قال لنا ذات غداة
انه اتاني الليلة اتيان فذكر الحديث وفيه فاتينا على روضة معتمة فيها من

كالوان

كالوان الربيع واذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا اكاد ارى راسه طولا
في السما واذا حول الرجل من اكثر ولدان رايتهم قط وفيه واما الولدان الذين الذي
حوله فكل مولود مات على الفطرة فقال المسلمون يا رسول الله واولاد المشركين
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم واولاد المشركين فهذا الحديث الصحيح صريح
في انهم في الجنة ورويا الانبيا وحي وفي مستخرج البرقاني على البخاري من حديث
عوف الاعرابي عن ابي رجا العطاردي عن سمرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
كل مولود يولد على الفطرة فقال الناس يا رسول الله واولاد المشركين قال واو
لاد المشركين قال ابو بكر ابن حمدان القطيعي نا يونس ابن موسى نا هوذة
ابن خليفة نا عوف عن خنسا بنت معاوية قالت حدثني عمي قلت يا رسول
الله من في الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في
الجنة والموودة في الجنة وكذلك رواه بندار عن غندر عن عوف واحتجوا
بقوله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وهولا لم تقم عليهم حجة الله
بالرسل فلا يعذبهم واحتجوا بقوله رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون
للناس على الله حجة بعد الرسل واحتجوا بقوله تعالى وما كان ربك ليهلك القرا
حتى يبعث في امها رسولا يتلوا عليهم اياتنا وما كنا مهلكي القرا الا واهلها
ظالمون فاذا كان سبحانه لا يهلك القرى في الدنيا ويعذب اهلها الا بظلمهم
فكيف يعذب في الاخرة العذاب الدايم من لم يصدر منه ظلم ولا يقال
كما اهلكه في الدنيا تبعا لابويه وغيرهم فكذلك يدخله النار تبعا لهم لان
مصايب الدنيا اذا وردت لا تختص الظالم وحده بل يصيب الظالم وغيره
ويبعثون على نياتهم واعمالهم كما قال تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين
ظلموا منكم خاصة وكالجيش الذي يخسف بهم جميعهم وفيهم المكره ومن

والمستبصر وغيره فاما عذاب الاخرة فلا يكون الا للظالمين خاصة ولا
يبقى فيها من لا ذنب له اصلا قال تعالى في النار كلما القي فيها فوج سالهم خزنتها
الم ياتكم نذير قالوا بلى قد جانا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء وقال تعالى
لابليس لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين واذا امتلات بـ
بابليس واتباعه فاين يستقر فيها من لم يتبعه قالوا وايضا فالقران مملو
من الاخبار بان دخول النار انما يكون بالاعمال لقوله هل تجزون الا ما
كنتم تعملون وقوله ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا وقوله
واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون
وقوله وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون الى غير ذلك من النصوص
قالوا وقد اخبر النبي صلى الله عليه وسلم ان كل مولود يولد على الفطرة وانما يهو
ده وينصره ابواه فاذا قبل التهويد والتنصير مات على الفطرة فكيف يستحق
النار وفي صحيح مسلم من حديث عياض ابن حماد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
يقول الله تعالى اني خلقت عبادي حنفا فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم
وحرمت عليهم ما احللت لهم وقال محمد ابن اسحق عن ثور ابن يزيد عن يحيى
ابن جابر عن عبد الرحمن ابن عايذ عن عياض عن النبي صلى الله عليه وسلم قال
ان الله خلق ادم وبنيه حنفا مسلمين واعطاهم المال حلالا لا حرام فيه
مسلمين قالوا وايضا فان النار دار عدله تعالى والجنة دار فضله
فلهذا ينشئ للجنة من لم يعمل عملا قط واما النار فانه لا يعذب بها الا من
عمل بعمل اهلها قالوا وايضا فالنار دار جزاء فمن لم يعص طرفة عين كيف يجازى
بالنار خالدا مخلدا ابد الاباد قالوا ولو عذب هولاء لكان تعذيبهم اما
مع تكليفهم بالايمان او بدون التكليف والقسمان ممتنعان اما الاول

فلا يصح الزامه

فلا يصح الزامه تكليف من لا تمييز له ولا عقل اصلا واما الثاني فممتنع ايضا بالنصوص
التي ذكرناها وامثالها من ان الله لا يعذب احدا الا بعد اقامة الحجة عليه
قالوا وايضا فلو كان تعذيب هولاء لاجل عدم الايمان المانع من العذاب
لاشتركوا هم واطفال المسلمين في ذلك لاشتراكهم في عدم الايمان الفعلي علما
وعملا فان قلتم اطفال المسلمين منعهم تبعهم لابائهم من العذاب بخلاف
اطفال المشركين قلنا الله تعالى لا يعذب احدا بذنب غيره قال تعالى ولا تزر
وازرة وزر اخرى وقال فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون الا ما كنتم تعملون
وهذه حجج كما ترى قوة وكثرة ولا سبيل الى دفعها وسياتي ان شاء الله فصل
النزاع في المسالة والقول بموجب الحجج الصحيحة كلها على عادتنا في مسائل
الدين كلها دقها وجلها ان نقول بموجبها ولا نضرب بعضها ببعض ولا
نتعصب لطائفة على طائفة بل نوافق كل طائفة على ما معها من الحق ونخالفها
فيما معها من خلاف الحق لا نستثني من ذلك طائفة ولا مقالة ونرجو من الله ان
نحيا على ذلك ونموت عليه ونلقى الله به ولا قوة الا بالله المذهب
الرابع انهم في منزلة بين المنزلتين بين الجنة والنار فانهم ليس لهم ايمان
يدخلون به الجنة ولا لابائهم فوز يلحق بهم اطفالهم تكميلا لثوابهم وزيادة
في نعيمهم وليس لهم من الاعمال ما يستحقون به دخول النار وهذا قول طائفة
من المفسرين قالوا وهم اهل الاعراف وقال عبد العزيز ابن يحيى الكناني هم
الذين ماتوا في الفترة والقايلون بهذا ان ارادوا ان هذا المنزل مستقرهم
ابدا فباطل فانه لا دار للقرار الا الجنة او النار وان انهم يكونون فيه مدة
ثم يصيرون الى دار القرار فهذا ليس بممتنع المذهب الخامس
انهم تحت مشية الله يجوز ان يعذبهم بعذابه وان يعمهم برحمته وان يرحم بعضا

ويجذب بعضا بمحض الارادة والمشيئة ولا سبيل الى اتيان شيء من هذه الاقسام
الا بخبر يجب المصير اليه ولا حكم فيهم الا بمحض المشيئة وهذا قول الجبرية نفاة
الحكمة والتعليل وقول كثير من مثبتي القدر وغيرهم المذهب
السادس انهم خدم اهل الجنة ومماليكهم وهم معهم بمنزلة ارقائهم ومما السادس
ليكهم في الدنيا واحتج هولاء بما رواه يعقوب ابن عبد الرحمن القاري عن
ابي حازم المديني عن يزيد الرقاشي عن انس قال الدارقطني ورواه عبد العزيز
الماجشون عن ابن المنكدر عن يزيد الرقاشي عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم
قال سالت ربي اللاهين من ذرية البشر ان لا يعذبهم فاعطانيهم فهم خدام
اهل الجنة يعني الصبيان فهذه طريقان وله طريق ثالث عن فضيل ابن
سليمان عن عبد الرحمن ابن اسحق عن الزهري عن انس قال ابن قتيبة اللا
هون من لهيت عن الشيء اذا عدلت عنه وليس هو من لهوت وهذه
الطرق ضعيفة فان يزيد الرقاشي واه وفضيل ابن سليمان متكلم فيه وعبد
الرحمن ابن اسحق ضعيف المذهب السابع ان حكمهم حكم ابائهم في الدنيا السابع
والاخرة فلا يفردون عنهم بحكم في الدارين فكما هم منهم في الدنيا فهم منهم
في الاخرة والفرق بين هذا وبين من يقول هم في النار ان صاحب هذا
المذهب يجعلهم معهم تبعا لهم حتى لو اسلم الابوان بعد موت اطفالهما
لم يحكم لافراطهما بالنار وصاحب هذا القول الاخر يقول هم في النار لكونهم
ليسوا بمسلمين ولم يدخلوها تبعا وهولا يحتجون بحديث عايشة الذي
تقدم ذكره واحتجوا ايضا في الصحيحين عن الصعب ابن جثامة قال سئل
رسول الله صلى الله عليه وسلم عن اهل الدار من المشركين يبيتون فيصيبون
من نسايهم وذراريهم فقال هم منهم ومثله من حديث الاسود ابن سريع

وقد تقدم



وقد تقدم حديث ابي وايل عن ابن مسعود يرفعه الوايدة والموودة
في النار وهذا يدل على انها انما كانت في النار تبعا لها فلو ويدل عليه قوله
تعالى والذين امنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من
عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين فهذا يدل على ان اتباع الذرية للابا
يهم ونجاتهم انما كان اكراما للابايهم وزيادة في ثوابهم وان الاتباع
انما تستحق بايمان الابا واذا انتفى ايمان الابا انتفى اتباع النجاة وبقي اتباع
العذاب ويفسره قوله صلى الله عليه وسلم هم منهم واجيب عن حجج هولاء
اما حديث عايشة الذي فيه انهم في النار فقد تقدم ضعفه واما احاديثها
الاخر هم من ابايهم فمثل حديث الصعب والاسود ابن سريع ليس فيه تعرض
للعذاب بنفي ولا اثبات لا اثبات وانما فيه انهم تبع لابايهم في الحكم وانهم اذا
اصيبوا في الجهاد والبيات لم يضمنوا بدية ولا كفارة وهذا مصرح به في
حديث الصعب والاسود انه في الجهاد واما حديث عايشة الاخر فضعفه
غير واحد قالوا وعبد الله ابن ابي قيس مولى غطيف راويه عنها ليس بالمعروف
فيقبل حديثه وعلى تقدير ثبوته فليس فيه تصريح بان السوال وقع عن الثواب
والعقاب والنبي صلى الله عليه وسلم قال هم من ابايهم ولم يقل هم معهم وفرق بين الحرفين
وكونهم منهم لا يقتضي ان يكونوا معهم في احكام الاخرة بخلاف كونهم منهم فانه
يقتضي ان تثبت لهم احكام الابا في الدنيا من التوارث والحضانة والنسب وغير
ذلك من احكام الابا والله تعالى يخرج الطيب من الخبيث والمومن من الكافر
واما حديث ابن مسعود فليس فيه ان هذا حكم كل واحد من اطفال المشركين
وانما يدل على ان بعض اطفالهم في النار وان من هذا الجنس من المو
ودات من يدخل النار وكونها موودة لا يمنع من دخولها النار بسبب اخر

وليس المراد كونها موؤودة هو السبب الموجب لدخول النار حتى يكون اللفظ عاما في كل موؤودة وهذا ظاهر ولكن كونها موؤودة لا يرفع عنها النار اذا استحقتها بسبب كما سياتي بيانه بعد هذا ان شاء الله واحسن من هذا ان يقال هي في النار ما لم يوجد سبب يمنع من دخولها النار كما سياتي بيانه بعد هذا ان شاء الله ففرق بين ان يكون جهة كونها موؤودة هي السبب الذي استحقت به دخول النار وبين كونها مانعة من دخول النار بسبب اخر واذا كان تعالى يسال الوائدة ولو لامها بغير استحقاق ويعذبها على وادها كما قال تعالى واذا الموؤودة سئلت فكيف يعذب الموؤودة بغير ذنب والله سبحانه لا يعذب من وادها بغير ذنب واما قوله تعالى والذين امنوا واتبعتهم ذريتهم بايمان فهذه الاية تدل على ان الله سبحانه يلحق ذرية المؤمنين بهم في الجنة وانهم يكونون معهم في درجتهم ومع هذا فلا يتوهم نزول الاباء الى درجة الذرية فان الله لم يلتهم اي لم ينقصهم من اعمالهم شيئا بل رفع ذريتهم الى درجاتهم مع توفير اجور الاباء عليهم ولما كان الحاق الذرية بالاباء في الدرجة انما هو بحكم التبعية لا بالاعمال ربما توهم متوهم ان ذرية الكفار يلحقونهم في العذاب تبعا وان لم يكن لهم اعمال الاباء فقطع تعالى هذا التوهم بقوله كل امرئ بما كسب رهين وتامل قوله تعالى والذين امنوا واتبعناهم ذرياتهم بايمان كيف اتى بالواو العاطفة في اتباع الذرية وجعل الخبر عن المؤمنين الذين هذا شانهم فجعل الخبر مستحقا بامرين احدهما ايمان الاباء والثاني اتباع الهم ذريتهم اباهم وذلك لا يقتضي ان كل مؤمن يتبعه كل ذرية له ولو اريد هذا المعنى لقيل والذين امنوا اتبعتهم ذرياتهم فعطف الاتباع بالواو ويقتضي ان يكون المعطوف بها قيدا وشرطا في ثبوت الخبر لا حصوله لكل افراد المبتدا

وعلى

نظر

وعلى هذا يخرج ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة قالت اتي النبي صلى الله عليه وسلم بصبي من الانصار يصلي عليه فقلت يا رسول الله طوبى لهذا لم يعمل شرا ولم يدر به فقال او غير ذلك يا عائشة ان الله خلق الجنة وخلق لها اهلا وخلقها لهم وهم في اصلاب ابائهم فهذا الحديث يدل على انه لا يشهد لكل طفل من اطفال المسلمين المؤمنين بالجنة وان اطلق على اطفال المؤمنين في الجنة لكن الشهادة للمعين ممتنعة كما نشهد للمؤمنين مطلقا انهم في الجنة ولا نشهد لمعين بذلك الا من شهد له النبي صلى الله عليه وسلم فهذا وجه هذا الحديث الذي اشكل على كثير من الناس ورده الامام احمد وقال لا يصح ومن يشك ان اولاد المسلمين في الجنة وتاوله قوم بتاويلات بعيدة **المذهب الثامن** انهم يمتحنون في عرصة القيامة ويرسل اليهم هناك رسول والى كل من لم تبلغه الدعوة فمن اطاع الرسول دخل الجنة ومن عصاه ادخل النار وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار وبهذا يتالف شمل الادلة وتتوافق الاحاديث ويكون معلوم الله عز وجل الذي احال عليه النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول الله اعلم بما كانوا عاملين يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب حال كونه معلوما خارجيا لا علما مجردا ويكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رد جوابهم الى علم الله فيهم والله تعالى يرد ثوابهم وعقابهم الى معلومه فيهم فالخبر عنهم مردود الى علمه ومصيرهم مردود الى معلومه وقد جاءت بذلك اثار كثيرة يؤيد بعضها بعضا فمنها ما رواه احمد في مسنده والبزار ايضا ص باسناد صحيح فقال احمد ثنا معاذ بن هشام عن ابيه عن قتادة عن الاحنف بن قيس عن الاسود بن سريع ان النبي صلى الله عليه وسلم قال اربعة يمتحنون يوم القيامة رجل اصم لا يسمع ورجل احمق ورجل هرم ورجل مات في الفترة اما الاصم فيقول

رب لقد جا الاسلام وانا ما اسمع شيا واما الاحمق فيقول رب لقد جا الاسلام
والصبيان يحذفوني بالبعر واما الهرم فيقول رب لقد جا الاسلام وما
اعقل واما الذي مات في الفترة فيقول رب ما اتاني رسول فياخذ مواثيقهم
ليطيعنه فيرسل اليهم رسولا ان ادخلوا النار فوالذي نفسي بيده لو دخلوها
لكانت عليهم بردا وسلاما قال معاذ وحدثني ابي عن قتادة عن الحسن عن ابي
رافع عن ابي هريرة بمثل هذا الحديث وقال في اخره فمن دخلها كانت عليه بردا
وسلاما ومن لم يدخلها رد اليها وفي مسند اسحق عن معاذ ابن هشام ايضا
ورواه البزار ولفظه عن الاسود ابن سريع عن النبي صلى الله عليه وسلم قال يعرض
على الله تبارك وتعالى الاصم الذي لا يسمع شيا والاحمق والهرم ورجل مات
في الفترة فيقول الاصم رب جا الاسلام وما اسمع شيا ويقول الاحمق رب جا
الاسلام وما اعقل شيا ويقول الذي مات في الفترة رب ما اتاني لك من رسول
وذكر الهرم وما يقول قال فياخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم تبارك وتعالى
ادخلوا النار فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردا وسلاما
قال الحافظ عبد الحق في حديث الاسود قد جا هذا الحديث وهو صحيح فيما
اعلم والاخرة ليست دار تكليف ولا عمل ولكن الله يخص من يشا بما يشا ويكلف
من يشا ما يشا وحيث ما يشا لا يسال عما يفعل وهم يسالون **قلت** وسياتي
على وقوع التكليف في الدار الاخرة او امتناعه عن قرب ان شا الله ورواه
علي ابن المديني عن معاذ بنحوه قال البيهقي نا محمد نا محمد ابن بشران انا ابو
جعفر الرزاز نا حنبل ابن الحسين نا علي ابن عبد الله وقال هذا اسناد صحيح
واما حديث ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فرواه معمر عن عبد الله ابن
طاوس عن ابيه عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فرواه معمر عن عبد الله

ابن

ابن طاوس عن ابيه عن ابي هريرة الى قوله وروى محمد ابن المبارك الصوري ثقة
قال نا عمرو ابن واقد ضعيف نا يونس ابن ميسرة ثقة عن ابي ادريس الخولاني
عن معاذ يرفعه يؤتى يوم القيمة بالممسوخ عقلا وبالهالك في الفترة وبالها
لك صغيرا فيقول الممسوخ عقلا يا رب لو اتيتني عقلا ما كان من اتيته عقلا
باسعد مني ويقول الهالك في الفترة يا رب لو اتاني منك عهد ما كان من اتاه
منك عهد باسعد بعهده مني ويقول المولود صغيرا يا رب لو اتيتني عمرا ما
كان من اتيته عمرا باسعد مني فيقول الرب سبحانه لئن امرتكم بامر لتطيعوني فيقو
لون نعم وعزتك فيقول اذهبوا فادخلوا النار فلو دخلوها ما ضرهم قال
فيخرج فوابس تحسبانها قد اهلكت ما خلق الله من شي فيامرهم ثانية فيرجعون
كذلك ويقولون مثل قولهم فيقول الله تعالى قبل ان تخلقوا علمت ما انتم عاملون
وعلى علمي خلقتكم والى علمي تصيرون فتاخذهم النار فهذا وان كان عمرو ابن واقد
لا يحتج به فله اصل وشواهد والاصول تشهد له وفي الباب احاديث غير هذا
وقد حكيت احاديث الامتحان في الاخرة من حديث الاسود ابن سريع وصححه عبد
الحق والبيهقي من حديث ابي هريرة وانس ومعاذ وابي سعيد فاما حديث الاسود
فرواه معاذ ابن هشام عن ابيه عن قتادة عن الاحنف ابن قيس عن الاسود
ابن سريع ان النبي صلى الله عليه وسلم قال واما حديث معاذ حدثني ابي عن
قتادة عن الحسن عن ابي رافع عن ابي هريرة رواه احمد واسحق عن معاذ ورواه
حماد ابن سلمة عن علي ابن زيد ابن جدعان عن ابي رافع عن ابي هريرة ورواه معمر
عن ابن طاوس عن ابيه عن ابي هريرة موقوفا عليه وهذا لا يضر الحديث فانه
ان سلك طريق ترجيح الزايد لزيادته فواضح وان سلك طريق المعارضة فغا
يتهما تحقق الوقف ومثل هذا لا يقدم عليه بالراي اذ لا مجال له فيه فيقبل بجزم

قال هذا توقيف منه لا عن راي واما حديث انس فرواه جرير ابن عبد الحميد
عن ليث ابن ابي سليم عن عبد الوارث عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم يوتى
يوم القيمة باربعة بالمولود وبالمعتوه وبمن مات في الفترة وبالشيخ الفاني
كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب سبحانه لعنق من جهنم ابرزي ويقول لهم اني كنت
ابعث الى عبادي رسولا من انفسهم واني رسول نفسي اليكم ويقول لهم ادخلوا
هذه ويقول من كتب عليه الشقا اني ندخلها ومنها كنا نفر واما من كتبت له السعا
دة فيمضي فيقتحم فيها فيقول الله فانتم لرسلي اشد تكذيبا فيدخل هولاء الى الجنة وهو
لاء الى النار وهذا وان لم يعتمد عليه بمجرده لمكان ليث ابن ابي سليم وتضعيف
الدارقطني لعبد الوارث فهو مما يعتضد به وقال البيهقي نا ابو عبد الله الحافظ
انا ابو العباس انا الوليد انا شعيب حدثني شيبان عن عبد الرزاق
عن انس عن النبي صلى الله عليه وسلم واما حديث معاذ فتقدم الكلام عليه واما حديث ابي
سعيد فرواه محمد ابن يحيا الذهلي نا سعيد ابن سليمان عن فضيل ابن مرزوق
عن عطية عن ابي سعيد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الهالك
في الفترة رب لم ياتني ويقول المعتوه رب لم تجعل لي عقلا اعقل به خيرا ولا شرا
ويقول المولود رب لم ادرك العقل فترفع لهم نار فيقول ردوها فيردها
من كان في علم الله سعيدا لو ادرك العمل ويمسك عنها من كان في علم الله شقيا
لو ادرك العمل فيقول اياي عصيتم فكيف لو رسلي اتتكم تابعه الحسن ابن موسى
عنه ورواه ابو نعيم عن فضيل ابن مرزوق فوقفه فهذا وان كان فيه عطية
فهو يعتبر بحديثه ويستشهد به وان لم يكن حجة واما الوقف فقد تقدم
نظيره في حديث ابي هريرة فهذه الاحاديث يشد بعضها بعضا ويشهد لها
اصول الشرع وقواعده والقول بمضمونها هو مذهب السلف والسنة

نقله

نقله عنهم الاشعري رحمه الله في كتاب المقالات وغيره فان قيل قد انكر ابن
عبد البر هذه الاحاديث وقال اهل العلم ينكرون احاديث هذا الباب لان
الاخرة ليست دار عمل ولا ابتلا فكيف يكلفون النار دخول النار وليس
ذلك في وسع المخلوقين والله لا يكلف نفسا الا وسعها فالجواب من وجوه
١ احدها ان اهل العلم لم يتفقوا على انكارها بل ولا اكثرهم وان انكرها بعضهم
فقد صحح غيره بعضها كما تقدم ٢ الثاني ان ابا الحسن الاشعري حكى هذا
المذهب عن اهل السنة والحديث فدل على انهم ذهبوا الى موجب هذه الا
حاديث ٣ الثالث ان اسناد حديث الاسود اجود من كثير من الاحاديث
التي يحتج بها في الاحكام ولهذا رواه الائمة احمد واسحق وعلي ابن المديني ٤ الرا
بع انه قد نص جماعة من الائمة على وقوع الامتحان في الدار الاخرة وقالوا
لا ينقطع التكليف الا بدخول دار القرار ذكره البيهقي عن غير واحد من
السلف ٥ الخامس ما ثبت في الصحيحين من حديث ابي هريرة وابي سعيد
في الرجل الذي هو اخر اهل الجنة دخولا اليها ان الله تعالى ياخذ عهوده ومو
اثيقه ان لا يساله غير الذي يعطيه وانه يخالفه ويساله غيره فيقول الله عز وجل
ما اغدرك وهذا الغدر منه هو لمخالفته العهد الذي عاهد ربه عليه
٦ السادس قوله وليس ذلك في وسع المخلوقين فجوابه من وجهين احدهما
ان ذلك ليس تكليفا بما ليس في الوسع وانما هو تكليف بما فيه مشقة شديدة وهو
كتكليف بني اسرائيل قتل اولادهم وازواجهم وابائهم حين عبدوا العجل وكتكليف
المومنين اذا راوا الدجال ومعه مثال الجنة والنار ان يقعوا في الذي يرونه
نارا الثاني انهم لو اطاعوه ودخلوها لم تضرهم وكانت بردا وسلاما
فلم يكلفوا بممتنع ولا بما يشق ٧ السابع انه قد ثبت انه سبحانه يامرهم في

القيامة بالسجود ويحول بين المنافقين وبينه وهذا التكليف بما ليس في الوسع
قطعا فكيف ينكر التكليف بدخول النار في رأي العين اذا كان سببا للنجاة كما
جعل قطع الصراط الذي هو ادق من الشعرة واحد من السيف سببا للنجاة
كما قال ابو سعيد الخدري بلغني انه ادق من الشعرة واحد من السيف رواه مسلم
فركوب هذا الصراط الذي هو في غاية الدقة وغاية المشقة كالامر بدخول
النار ولهذا كلاهما يفضي منه الى النجاة والله اعلم الثامن ان هذا استبعاد
استبعاد مجرد لا ترد به الاحاديث بمثله والناس لهم طريقان فمن سلك طريق
تعليق التكليف بمجرد المشية لم يمكنه استبعاد هذا التكليف ومن سلك طريق
الحكمة والتعليل لم يكن معه حجة تنفي ان يكون هذا التكليف موافقا للحكمة
بل الادلة الصحيحة تدل على انه مقتضى الحكمة كما ذكرناه التاسع ان في
اصح هذه الاحاديث وهو حديث الاسود انهم يعطون ربهم المواثيق
ليطيعنه فيما يامرهم به فيامرهم ان يدخلوا نارا للامتحان فيتركوا الدخول
معصية لامره لا لعجزهم عنه فكيف يقال انه ليس في الوسع فان قيل فالاخرة
دار جزاء وليست دار تكليف فكيف يمتحنون في غير دار التكليف فالجواب
ان التكليف انما ينقطع بدخول دار القرار واما في البرزخ وعرصات
القيامة فلا ينقطع وهذا معلوم بالضرورة في البرزخ من وقوع التكليف
بمسالة الملكين في البرزخ وهي تكليف واما في عرصات القيمة فقد قال
تعالى يوم يكشف عن ساق ويدعون الى السجود فلا يستطيعون فهذا
صريح في ان الله تعالى يدعو الخلائق الى السجود يوم القيمة وان الكفار يحال
بينهم وبين السجود اذ ذاك ويكون هذا التكليف بما لا يطاق حينئذ حسا
عقوبة لهم لانهم كلفوا في الدنيا وهم يطيقونه فلما امتنعوا منه وهو مقدور

لهم

لهم كلفوا وهم لا يقدرون عليه حسرة عليهم وعقوبة لهم ولهذا قال تعالى وقد
كانوا يدعون الى السجود وهم سالمون يعني اصحا لا آفة تمنعهم فلما تركوه وهم
سالمون دعوا اليه في وقت حيل بينهم وبينه كما في الصحيح من حديث زيد ابن اسلم
عن عطا عن ابي سعيد ان ناسا قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا فذكر الحديث
بطوله الى ان قال فيقول لتتبع كل امة ما كانت تعبد فيقول المومنون فارقنا
الناس في الدنيا افقر ما كنا اليهم ولم نصاحبهم فيقول انا ربكم فيقولون نعوذ
بالله منك لا نشرك بالله شيا مرتين او ثلاثا حتى ان بعضهم يكاد ان ينقلب
فيقول هل بينكم وبينه اية تعرفونه بها فيقولون نعم فيكشف عن ساق
فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقا نفسه الا اذن الله له بالسجود ولا يبقى من
كان يسجد اتقاء ورياء الا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما اراد ان يسجد خر على
قفاه ثم يرفعون رؤسهم وذكر الحديث وهذا التكليف نظير التكليف في
البرزخ بالمسالة فمن اجاب في الدنيا طوعا واختيارا اجاب في البرزخ
ومن امتنع من الاجابة في الدنيا منع منها في البرزخ ولم يكن تكليفه في تلك
الحال وهو غير قادر قبيحا بل هو مقتضى الحكمة الالهية لانه كلف وقت القدرة
فابى فاذا كلف وقت العجز وقد حيل بينه وبين الفعل كان عقوبة له وحسرة والمقصود
ان التكليف لا ينقطع الا بعد دخول الجنة او النار وبهذا قد تقدم ان حديث
الاسود ابن سريع صحيح وفيه التكليف في عرصة القيمة فهو مطابق لما ذكرنا
من النصوص الصحيحة الصريحة فعلم ان القران تدل عليه الادلة الصحيحة وما
تلقى به النصوص وهو مقتضى الحكمة هو هذا القول والله اعلم وقد حكى بعض
اهل المقالات عن ثمامة ابن اشرس انه ذهب الى ان الاطفال يصيرون
يوم القيمة ترابا وقد نقل عن ابن عباس ومحمد ابن الحنفية والقاسم ابن محمد

الطبقة الخامسة عشره

وغيرهم انهم كرهوا الكلام في هذه المسئلة بجملته
طبقة الزنادقة وهم قوم اظهروا الاسلام ومتابعة الرسل وابطنوا الكفر ومعا
داة الله ورسله وهولاء هم المنافقون وهم في الدرك الاسفل من النار قال
تعالى ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا فالكفار المجا
هرون بكفرهم اخف وهم فوقهم في دركات النار لان الطائفتين اشتركتا في الكفر
ومعاداة الله ورسله وزادت المنافقون عليهم بالكذب والنفاق وبلية المسلمين
بهم اعظم من بليتهم بالكفار المجاهرين ولهذا قال الله تعالى في حقهم هم العدو
فاحذرهم وقيل هذا اللفظ يقتضي الحصر اي لا عدو الا هم ولكن لم يرد
ها هنا حصر العداوة فيهم وانه لا عدو للمسلمين سواهم بل هذا من باب اثبات
الاولوية والاحقية لهم في هذا الوصف وانه لا يتوهم بانتسابهم الى المسلمين
ظاهرا وموالاتهم لهم ومخالطتهم اياهم انهم ليسوا باعدائهم بل هم احق بالعداوة
من من باينهم في الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها فان ضرر هولاء المخا
لطين لهم المعاشرين لهم وهم في الباطن على خلاف دينهم اشد عليهم من ضرر من
جاهرهم بالعداوة والزم وادوم لان الحرب مع اولئك ساعة او اياما ثم
ينقضي ويعقبه النصر والظفر وهولاء معهم في الديار والمنازل صباحا ومساء
يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم
فهم احق بالعداوة من المباين المجاهر فلهذا قيل هم العدو لا على معنى انه لا عدو
لكم سواهم بل على معنى انهم احق بان يكونوا لكم عدوا من الكفار المجاهرين
ونظير ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده اللقمة
واللقمتان والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يسال الناس ولا يفطن له
فيتصدق عليه فليس هذا نفيا لاسم المسكين عن الطواف بل اخبار بان هذا

القانع

القانع الذي لا يسمونه مسكينا احق بهذا الاسم من الطواف الذي يسمونه
مسكينا ونظيره قوله ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند
الغضب ليس نفيا للاسم عن الصرعة ولكن اخبار بان من يملك نفسه عند الغضب
احق منه بهذا الاسم ونظيره قوله ما تعدون المفلس فيكم قالوا من لا درهم
له ولا متاع قال المفلس من ياتي يوم القيامة بحسنات امثال الجبال ويأتي وقد
لطم هذا وضرب هذا واخذ مال هذا فيقتص هذا من حسناته وهذا من حسناته
فان فنيت حسناته قبل ان يقضي ما عليه اخذ من سيئاتهم ثم طرح عليه ثم القي في
النار ونظيره قوله ما تعدون الرقوب فيكم قالوا من لا يولد له قال الرقوب
من لم يقدم من ولده شيئا ومنه عندي قوله صلى الله عليه وسلم الربا في النسيئة
هو اثبات ان هذا النوع احق باسم الربا من ربا الفضل وليس فيه نفي اسم الربا
عن ربا الفضل فتامله والمقصود ان هذه الطبقة اشقى الاشقياء ولهذا يستهزئ
بهم في الاخرة ويعطون نورا يتوسطون به على الصراط ثم يطفئ الله نورهم
ويقال لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ويضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له
باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ينادونهم الم نكن معكم قالوا
بلى ولكنكم فتنتم انفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء امر الله
وغركم بالله الغرور وهذا اشد ما يكون من الحسرة والبلاء ان يفتح للعبد
طريق النجاة والفلاح حتى اذا ظن انه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم
وضربت عليهم الشقوة نعوذ بالله من غضبه وعقابه وانما كانت هذه الطبقة
في الدرك الاسفل من النار لغلظ كفرهم فانهم خالطوا المسلمين وعاشروهم
وباشروا من اعلام الرسالة وشواهد الايمان ما لم يباشره البعداء ووصل اليهم
من معرفته وصحته ما لم يصل الى المنابذين بالعداوة فاذا كفروا مع هذه المعرفة

وانهم كانوا اغلظ كفرا واخبث قلوبا واشد عداوة لله ولرسوله وللمومنين
من البعد عنهم وان كان البعد متصلا بين حرب المسلمين ولهذا قال تعالى في
المنافقين ذلك بانهم امنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون وقال
فيهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون وقال في الكفار صم بكم عمي فهم لا يعقلون فالكافر
لم يعقل والمنافق ابصر ثم عمي وعرف ثم تجاهل واقر ثم انكر وامن ثم كفر ومن كان
هكذا فهو اشد كفرا واخبث قلبا واعتى على الله ورسله فاستحق الدرك الاسفل
وفيه معنى اخر وهو ان الحامل لهم على النفاق طلب العز والجاه بين الطايفتين فيرضوا
المومنين ليعزوهم ويرضوا الكفار ليعزوهم ايضا ومن هاهنا دخل عليهم البلا
فانهم ارادوا العز بين الطايفتين ولم يكن لهم غرض في ايمان ولا اسلام ولا طا
عة لله ورسوله بل كان ميلهم وصغوهم ووجهتهم الى الكفار فقوبلوا على ذلك باعظم
الذل وهو ان جعل مستقرهم في اسفل سافلين تحت الكفار فما اتصف به
المنافقون من مخادعة الله ورسوله والذين امنوا والاستهزا باهل الايما
والكذب والتلاعب بالدين واظهار انهم من المومنين مع انطواء قلوبهم على
الكفر والشرك وعداوة الله ورسوله امر اختصوا به عن الكفار فتغلظ كفرهم
به فاستحقوا الدرك الاسفل من النار ولهذا لما ذكر تعالى اقسام الخلق في اول
سورة البقرة فقسمهم الى مومن ظاهرا وباطنا وكافر ظاهرا وباطنا ومومن
في الظاهر كافر في الباطن وهم المنافقون ذكر في حق المومنين ثلاث ايات وفي الكفار
ايتين فلما انتهى الى ذكر المنافقين ذكر فيهم بضع عشرة اية ذمهم فيها غاية الذم وكشف
عوراتهم وفضحهم واخبر بانهم هم السفهاء المفسدون في الارض المخادعون
المستهزؤن المغبونون في اشترايهم الضلالة بالهدى وانهم صم بكم عمي فهم لا يرجعون
وانهم مرضى القلوب وان الله يزيدهم مرضا الى مرضهم فلم يدع ذما ولا عيبا الا

ذمهم به

ذمهم به وهذا يدل على شدة مقته سبحانه لهم وبغضه اياهم وعداوته لهم وانهم ابغض
اعدايه اليه فظهرت حكمته الباهرة في تخصيص هذه الطبقة بالدرك الاسفل من النار
نعوذ بالله من مثل حالهم ونساله معافاته ورحمته ومن تامل ما وصف الله به المنا
فقين في القران من صفات الذم علم انهم احق بالدرك الاسفل فانه وصفهم بمخا
دعته ومخادعة عباده ووصف قلوبهم بالمرض وهو مرض الشبهات والشكوك
ووصفهم بالافساد في الارض وبالاستهزاء بدينه وعباده وبالطغيان واشترا
الضلالة بالهدى وبالصمم والبكم والعمى والحيرة والكسل عند عبادته والريا وقلة
ذكره والتردد والتذبذب بين المومنين والكفار فلا الى هولاء ولا الى هولاء
والحلف باسمه تعالى كذبا وباطلا وبالكذب وبغاية الجبن وبعدم الفقه في الدين
وبعدم العلم والبخل وبعدم الايمان بالله وباليوم الاخر وبالريب وبانهم مضرة
على المومنين لا يحصل لهم بصحبتهم الا الشر من الخبال والاسراع بينهم بالشر والقاء
الفتنة وكراهتهم لظهور امر الله ومجي الحق وانهم يحزنون بما يحصل للمومنين
من الخير والنصر ويفرحون بما يحصل لهم من المحنة والابتلا وانهم يتربصون الدوائر
بالمسلمين وبكراهتهم الانفاق في مرضات الله وسبيله وبعيب المومنين ورميهم
بما ليس فيهم فيلمزون المتصدقين ويعيبون مزهدهم ويرمون مكثرهم بالريا وارادة
الثنا في الناس وانهم عبيد الدنيا ان اعطوا منها رضوا وان منعوها سخطوا
وبانهم يوذون رسول الله وينسبونه الى ما براه الله منه ويعيبونه بما هو من كماله
وفضله وبانهم يقصدون ارضا المخلوقين ولا يطلبون ارضا رب العالمين وانهم
يسخرون من المومنين وانهم يفرحون اذا تخلفوا عن رسول الله ويكرهون
الجهاد في سبيل الله وانهم يتحيلون على تعطيل فرايض الله بانواع الحيل وانهم يرضون
بالتخلف عن طاعة الله ورسوله وانهم مطبوع على قلوبهم وانهم يتركون ما احب

الله عليهم مع قدرتهم عليه وانهم احلف الناس بالله قد اتخذوا ايمانهم جنة تقيهم
من انكار المسلمين عليهم وهذا شان المنافق احلف الناس بالله كاذبا قد اتخذ
يمينه جنة ووقاية يتقي بها انكار المسلمين عليه ووصفهم بانهم رجس والرجس من
كل جنس اخبثه واقذره فهم اخبث بني ادم واقذرهم وارذلهم وبانهم فاسقون
وبانهم مضرة على اهل الايمان يقصدون التفريق بينهم ويوون من حاربهم
وحارب الله ورسوله وانهم يتشبهون بهم في اعمالهم ويضاهونهم ليتوصلوا
بها الى الاضرار بهم وتفريق كلمتهم وهذا شان المنافقين ابدا وبانهم فتنوا
انفسهم بكفرهم بالله ورسوله وتربصوا بالمؤمنين دوائر السو وهذا عادتهم
في كل زمان وارتابوا في الدين فلم يصدقوا به وغرتهم الاماني الباطلة وغرهم
الشيطان وانهم احسن الناس اجساما تعجب الرائي اجسامهم والسامع منطقهم
فاذا جاوزت اجسامهم وقولهم رايت خشبا مسندة لا ايمان ولا فقه ولا علم ولا
صدق بل خشب قد كسيت كسوة تروق الناظر وليس وراء ذلك شيء واذا عرض
عليهم التوبة والاستغفار ابوها وزعموا انهم لا حاجة لهم اليها اما لان ما عندهم
من الزندقة والجهل المركب مغن عنها وعن الطاعات كلها جملة كحال كثير من الزنا
دقة واما احتقارا وازدراء بمن يدعوهم الى ذلك ووصفهم تعالى بالاستهزاء به وباياته
وبرسوله وبانهم مجرمون وبانهم يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف وبانهم يقبضون
عن الانفاق في سبيل الله ومرضاته وبنسيانهم ذكره وبانهم يتولون الكفار ويدعون
المومنين وبان الشيطان قد استحوذ عليهم وغلب عليهم حتى انساهم ذكر الله فلا
يذكرونه الا قليلا وانهم حزب الشيطان وانهم يحادون من حاد الله ورسوله
وبانهم يتمنون ما يعنت المومنين ويشق عليهم وان البغضا تبدو لهم من افوا
ههم وعلى فلتات السنتهم وانهم يقولون بافواههم ما ليس في قلوبهم ومن

صفاتهم

صفاتهم التي وصفهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب في الحديث والخيانة في الامانة
والغدر عند العهد والفجور عند الخصام والخلف عند الوعد وتاخير الصلاة
الى اخر وقتها ونقرها عجلة واسراعا وترك حضورها جماعة وان اثقل الصلوات
عليهم الصبح والعشا ومن صفاتهم التي وصفهم الله بها الشح على المومنين بالخير
والجبن عند الخوف فاذا زال الخوف وجا الامن سلقوا المومنين بالسنة
حداد فهم احد الناس السنة عليهم كما قيل ؛ جهلا علينا وجبنا عن عدوكم ؛
لبئست الخلتان الجهل والجبن ؛ وانهم عند المخاوف تظهر كما بين صدورهم
ومخباتها واما عند الامن فيجب سترها فاذا لحق المومنين خوف دبت عقارب
قلوبهم وظهرت المخبات وبدت الاسرار ومن صفاتهم انهم اعذب الناس السنة
وامرهم قلوبا واعظم الناس مخالفة بين اعمالهم واقوالهم اعمالهم تكذب اقوالهم
وباطنهم يكذب ظاهرهم وسرايرهم تناقض علانيتهم ومن صفاتهم ان المومن لا
يثق بهم في شيء فانهم قد اعدوا لكل امر مخرجا منه بحق او باطل بصدق او بكذب
ولهذا سمي منافقا اخذا من نافقا اليربوع وهو بيت يحفره ويجعل له اسرابا
مختلفة فكلما خرج طالبه من سرب خرج من سرب فلا يتمكن طالبه من حصره في سرب
واحد قال الشاعر ؛ ويستخرج اليربوع من نافقائه ؛ ومن بيته ذو الشيحة اليتقصع ؛
فانت فيه كقبض على الماء ليس معك منه شيء ومن صفاتهم كثرة التلون وسرعة التقلب وعدم
الثبات على حال واحد بينا تراه على حال تعجبك من دين او عبادة او هدي صالح
او صدق اذ انقلب الى ضد ذلك كانه لم يعرف غيره فهو اشد الناس تلونا
وتقلبا وتنقلا جيفة بالليل قطربا بالنهار ومن صفاتهم اذا دعوتهم عند المنازعة
الى التحاكم الى القران والسنة ابوا ذلك واعرضوا عنه ودعوك الى التحاكم الى طوا
غيتهم قال تعالى الم تر الى الذين يزعمون انهم امنوا بما انزل اليك وما انزل من

قبلك يريدون ان يتحاكموا الى الطاغوت وقد امروا ان يكفروا به ويريد الشيطان ان
يضلهم ضلالا بعيدا واذا قيل لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول رايت المنا
فقين يصدون عنك صدودا فكيف اذا اصابتهم مصيبة بما قدمت ايديهم ثم جاوك
يحلفون بالله ان اردنا الا احسانا وتوفيقا اولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم
فاعرض عنهم وعظهم وقل لهم في انفسهم قولا بليغا ومن صفاتهم معارضة ما
جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بعقول الرجال واراىهم ثم تقديمها على ما جاء به فهم معرضون
عنه معارضون له زاعمون ان الهدى في اراء الرجال وعقولهم دون ما جاء به
فلو اعرضوا عنه وتعوضوا عنه بغيره لكانوا منافقين فكيف اذا جمعوا الى ذلك
معارضته وزعمهم انه لا يستفاد منه هدى ومن صفاتهم كتمان الحق والتلبيس
على اهله ورميهم لهم بادوائهم فيرمونهم اذا امروا بالمعروف او نهوا عن
المنكر او دعوا الى الله ورسوله بانهم اهل فتن مفسدون في الارض وقد علم
الله ورسوله والمومنون انهم اهل الفتن المفسدون في الارض واذا دعا ورثة
الرسول الى كتاب الله والى سنة رسول الله خالصة غير مشوبة رموهم بالبدع
والضلال واذا راوهم زاهدين في الدنيا راغبين في الاخرة متمسكين بطاعة الله
ورسوله رموهم بالزوكرة والتلبيس والمحال واذا راوا معهم حقا البسوه لباس الباطل
واخرجوه لضعفا العقول في قالبه لينفروهم عنه واذا كان معهم باطل البسوه
لباس الحق واخرجوه في قالبه ليقبل منهم وجملة امرهم انهم في المسلمين كالزغل
في النقود يروج على اكثر الناس لعدم بصيرتهم بالنقد ويعرف حاله النا
قد البصير من الناس وقليل ما هم وليس على الاديان اضر من هذا الضرب من
الناس وانما تفسد الاديان من قبلهم ولهذا جلى الله امرهم في القران واوضح او
صافهم وبين احوالهم وكرر ذكرهم لشدة المؤنة على الامة بهم وعظيم البلية عليهم

بوجود

بوجودهم بين اظهرهم وفرط حاجتهم الى معرفتهم والتحرز من مشابهتهم والاصغا اليهم
فكم قطعوا على السالكين الى الله طريق الهدى وسلكوا بهم سبل الردى ووعدو
هم ومنوهم ولكن وعدوهم الغرور ومنوهم الويل والثبور فكم لهم من قتيل ولكن
في سبيل الشيطان وسليب ولكن للباس التقوى والايمان واسير لا يرجى له الخلاص
وفار من الله لا اليه وهيهات ولات حين مناص صحبتهم توجب العار والشنار ومود
تهم تحل غضب الجبار ودخول النار من علقت به كلاليب كلبهم ومخاليب ارايهم مزقت
منه ثياب الدين والايمان وقطعت له مقطعات البلا والخذلان فهو يسحب من
الحرمان والشقاوة اذيالا ويمشي القهقرى ادبارا منه وهو يحسب ذلك اقبالا فهم والله
على عقبيه
قطاع الطريق حقا فيا ايها الركب المسافرون الى منازل السعدا حذارا منهم حذارا
وهم الجزارون السنتهم بشفار البلا فيا غيرة منهم ايها الغنم فرارا ومن البلية انهم
الاعدا حقا وليس لنا بد من مصاحبتهم وخلطتهم اعظم الدا وليس لنا بد من مخا
لطتهم قد جعلوا على ابواب جهنم دعاة اليها فبعدا للمستجيبين ونصبوا اشباكهم
حواليها على ما حفت به من الشهوات فويل للمغترين نصبوا الشباك
ومدوا الاشراك واذن موذنهم يا اشباه الانعام حي على الهلاك حي على التباب
فاستبقوا يهرعون اليه فاوردهم حياض العذاب لا موارد العذاب واسامهم
من الخسف والبلا اعظم خطه وقال ادخلوا باب الهوان صاغرين ولا تقولوا
حطه فليس بيوم حطه فواعجبا لمن نجا من اشراكهم لا لمن علق وانى ينجو منها
من غلبت عليه شقاوته ولها خلق فحقيق باهل هذه الطبقة ان يحلوا بالمحل
الذي احلهم الله من دار الهوان وان ينزلوا في ادنى منازل العناد والكفران
وبحسب ايمان العبد ومعرفته يكون خوفه ان يكون من اهل هذه الطبقة ولهذا
اشتد خوف سادات الامة وسابقوها على انفسهم ان يكونوا منهم فكان



عمر ابن الخطاب يقول يا حذيفة نشدتك الله هل سماني رسول الله صلى الله عليه وسلم
مع القوم فيقول لا ولا ازكي بعدك احدا يعني لا افتح علي هذا الباب في تزكية
الناس ليس معناه انه لم يبرا من النفاق غيرك وقال ابن ابي مليكة ادركت ثلاثين
من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ما منهم احد يقول
انا على ايمان جبريل وميكايل الطبقة السادسة عشر طبقة ١٦

طبقة رؤسا الكفر وايمته ودعاته الذين كفروا وصدوا عباد الله عن الايمان
وعن الدخول في دينه رغبة ورهبة فهولا عذابهم مضاعف ولهم عذابان
عذاب بالكفر وعذاب بصدهم الناس عن الدخول في الايمان قال تعالى الذين كفروا
وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب فاحد العذابين بكفرهم
والعذاب الاخر بصدهم عن سبيل الله وقد استقرت حكمة الله وعدله ان يجعل
على الداعي الى الضلال مثل اثام من اتبعه واستجاب له ولا ريب ان عذاب هذا
يتضاعف ويتزايد بحسب من اتبعه وضل به وهذا النوع في الاشقيا مقابل
دعاة الهدى في السعدا فاوليك تضاعف ثوابهم وتعلوا درجاتهم بحسب
من اتبعهم واهتدى بهم وهولا عكسهم ولهذا كان فرعون وقومه في
اشد العذاب قال تعالى في حقهم النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم
تقوم الساعة ادخلوا ال فرعون اشد العذاب وهذا تنبيه على ان فرعون
نفسه في الاشد من ذلك لانه انما دخلوا اشد العذاب تبعا له فانه هو الذي
استخفهم فاطاعوه وغرهم فاتبعوه ولهذا يكون يوم القيمة امامهم وفرطهم
في هذا الورود قال تعالى يقدم قومه يوم القيمة فاوردهم النار والمقصود
انهم انما استحقوا اشد العذاب لتغلظ كفرهم وصدهم عن سبيل الله وعقوبتهم
من امن بالله فليس عذاب الروسا في النار كعذاب اتباعهم ولهذا في

كتاب

كتاب النبي صلى الله عليه وسلم لهرقل فان توليت فان عليك اثم الاريسيين والصحيح
في اللفظة انهم الاتباع ولهذا كان عدو الله ابليس اشد اهل النار عذابا وهو اول من
يكسى حلة من النار لانه امام كل كفر وشرك وشر فما عصي الله الا على يديه وبسببه ثم
الامثل فالامثل من نوابه في الارض ودعاته ولا ريب ان الكفر يتفاوت فكفر احد
اغلظ من كفر كما ان الايمان يتفاوت فايمان افضل من ايمان فكما ان المومنين
ليسوا في درجة واحدة بل هم درجات عند الله فكذلك الكفار ليسوا في طبقة
واحدة ودرك واحد بل النار دركات كما ان الجنة درجات ولا يظلم الله من خلقه
احدا وهو الغني الحميد

فصل

ويغلظ الكفر الموجب لتغلظ العذاب
يكون من ثلاثة اوجه احدها من حيث العقيدة الكافرة في نفسها كمن جحد
رب العالمين بالكلية وعطل العالم عن الرب الخالق المدبر له فلم يومن بالله ولا
بملايكته ولا كتبه ولا رسله ولا اليوم الاخر ولهذا لا يقر ارباب هذا الكفر بالجزية
عند كثير من العلما ولا تؤكل ذبايحهم ولا تنكح نساؤهم اتفاقا لتغلظ كفرهم
وهولا هم المعطلة والدهرية وكثير من الفلاسفة واهل الوحدة القايلين بانه
لا وجود للرب تعالى غير وجود هذا العالم الجهة الثانية تغلظه بالعناد
والضلال عمدا على بصيرة كمن كفر من شهد ان الرسول حق لما راه من ايات
صدقه وكفر عنادا وبغيا كقوم ثمود وقوم فرعون واليهود الذين عرفوا
الرسول كما عرفوا ابناهم وكفر ابي جهل وامية ابن ابي الصلت وامثال هولا الجهة
الثالثة السعي في اطفا نور الله وصد عباده عن دينه بما تصل اليه قدرتهم
فهولا اشد الكفار عذابا بحسب تغلظ كفرهم ومنهم من يجتمع في حقه الجهات
الثلاث ومنهم من يكون فيه ثنتان منها او واحدة فليس عذاب هولا كعذاب
من هو دونهم في الكفر ممن هو ملبوس عليه لجهله والمومنون من اذاه في

سلامة لا ينالهم منه اذى ولم يتغلظ كفره كتغلظ كفر هولا بل هو مقر بالله ووحدانيته
وملايكته وجنس الكتب والرسل واليوم الاخر وان شاركهم او اتباعهم في كفرهم
بالرسول فقد زادوا عليه انواعا من الكفر وهل يستوي في النار عذاب ابي طالب
وابي لهب وابي جهل وعقبة ابن ابي معيط وابي ابن خلف واضرابهم والمقصود
ان هذه الطبقة طبقة الروسا الدعاة الصادين عن دين الله ليست كطبقة
من دونهم وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان اهون اهل النار عذابا
ابو طالب ومعلوم ان كفر ابي طالب لم يكن مثل كفر ابي جهل وامثاله **الطبقة السابعة عشر**
طبقة المقلدين وهم جهال الكفرة واتباعهم وحميرهم طبقة ١٧ بلغ
الذين معهم تبع يقولون انا وجدنا اباانا على امة وانا على اثارهم ولنا اسوة
بهم ومع هذا فهم متاركون لاهل الاسلام غير محاربين لهم كنسا المحاربين
وخدمهم وتباعهم الذين لم ينصبوا انفسهم لما نصب له اوليك انفسهم من
السعي في اطفاء نور الله وهدم دينه واخماد كلماته بل هم معهم بمنزلة الدواب
وقد اتفقت الامة على ان هذه الطبقة كفار وان كانوا جهالا مقلدين لرو
سايهم وايمتهم الا ما يحكى عن بعض اهل البدع انه لم يحكم لهولا بالنار وجعلهم
بمنزلة من لم تبلغه الدعوة وهذا مذهب لم يقل به احد من ايمة المسلمين لا
الصحابة ولا التابعين ولا من بعدهم وانما يعرف عن بعض اهل الكلام
المحدث في الاسلام وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ما من مولود الا
وهو يولد على الفطرة فابواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه فاخبر ان ابويه
ينقلانه عن الفطرة الى اليهودية والنصرانية والمجوسية ولم يعتبر في ذلك غير
المربا والمنشا على ما عليه الابوان وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه قال ان الجنة
لا يدخلها الا نفس مسلمة وهذا المقلد ليس بمسلم وهو عاقل مكلف والعاقل

المكلف

المكلف لا يخرج عن الاسلام او الكفر واما من لم تبلغه الدعوة فليس بمكلف في
تلك الحال وهو بمنزلة الاطفال والمجانين وقد تقدم الكلام عليهم والاسلام
هو توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له والايمان برسوله واتباعه فيما
جاء به فما لم يات العبد بهذا فليس بمسلم وان لم يكن كافرا معاندا فهو كافر جاهل
فغاية هذه الطبقة انهم كفار جهال غير معاندين وعدم عنادهم لا يخرجهم
عن كونهم كفارا فان الكافر من جحد توحيد الله وكذب رسوله اما عنادا
واما جهلا وتقليدا لاهل العناد فهذا وان كان غايته انه غير معاند فهو
متبع لاهل العناد وقد اخبر الله تعالى في القران في غير موضع بعذاب المقلدين
لاسلافهم من الكفار وان الاتباع مع متبوعيهم وانهم يتحاجون في النار
وان الاتباع يقولون ربنا هولاء اضلونا فاتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل
ضعف ولكن لا تعلمون وقال تعالى واذ يتحاجون في النار فيقول الضعفا للذين
استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل انتم مغنون عنا نصيبا من النار قال الذين استكبروا
انا كل فيها ان الله قد حكم بين العباد وقال تعالى ولو ترى اذ الظالمون موقوفون
عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين
استكبروا لولا انتم لكنا مومنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا
انحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاكم بل كنتم مجرمين وقال الذين استضعفوا
للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار اذ تامروننا ان نكفر بالله ونجعل له
اندادا فهذا اخبار من الله وتحذير بان المتبوعين والتابعين اشتركوا
في العذاب ولم يغن عنهم تقليدهم شيا واصرح من هذا قوله تعالى اذ تبرا الذين
اتبعوا من الذين اتبعوا وراوا العذاب وتقطعت بهم الاسباب وقال الذين
اتبعوا لو ان لنا كرة فنتبرا منهم كما تبروا منا وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم

انه قال من دعا الى ضلالة كان عليه من الاثم مثل اوزار من اتبعه لا ينقص من اوزا
رهم شيا وهذا يدل على ان كفر من اتبعهم انما هو بمجرد اتباعهم وتقليدهم نعم
لا بد في هذا المقام من تفصيل به يزول الاشكال وهو الفرق بين مقلد تمكن
من العلم ومعرفة الحق فاعرض عنه ومقلد لم يتمكن من ذلك بوجه والقسما
ن واقعان في الوجود فالمتمكن المعرض مفرط تارك للواجب عليه لا عذر له عند الله
واما العاجز عن السوال والعلم الذي لا يتمكن من العلم بوجه فهم قسمان ايضا
احدهما مريد للهدى موثر له محب له غير قادر عليه ولا على طلبه لعدم من يرشده
فهذا حكمه حكم ارباب الفترات ومن لم تبلغه الدعوة الثاني معرض لا ارادة له
ولا يحدث نفسه بغير ما هو عليه فالاول يقول يا رب لو اعلم لك دينا خيرا مما
انا عليه لدنت به وتركت ما انا عليه ولكن لا اعرف غير ما انا عليه ولا قدرة لي
على غيره فهو غاية جهدي ونهاية معرفتي والثاني راض بما هو عليه لا يوثر غيره
عليه ولا تطلب نفسه سواه ولا فرق عنده بين حال عجزه وقدرته وكلاهما عاجز
وهذا لا يجب ان يلحق بالاول لما بينهما من الفرق فالاول كمن طلب الدين في
الفترة ولم يظفر به فعدل عنه بعد استفراغ الوسع في طلبه عجزا وجهلا والثا
ني كمن لا يطلبه بل مات على شركه وان كان لو طلبه لعجز عنه ففرق بين عجز الطالب
وعجز المعرض فتامل هذا الموضع والله يقضي بين عباده يوم القيمة بحكمه وعدله
ولا يعذب الا من قامت عليه الحجة بالرسل فهذا مقطوع به في جملة الخلق واما كون
زيد بعينه وعمرو بعينه قامت عليه الحجة ام لا فذلك مما لا يمكن الدخول بين الله
وبين عباده فيه بل الواجب على العبد ان يعتقد ان كل من دان بدين غير دين الاسلام
فهو كافر وان الله سبحانه لا يعذب احدا الا بعد قيام الحجة عليه بالرسول هذا
في الجملة والتعيين موكول الى علم الله عز وجل وحكمه هذا في احكام الثواب والعقا

واما

واما في احكام الدنيا فهي جارية على ظاهر الامر فاطفال الكفار ومجانينهم في
احكام الدنيا لهم حكم اوليائهم وبهذا التفصيل يزول الاشكال في المسئلة وهو
مبني على اربعة اصول احدها ان الله سبحانه لا يعذب احدا الا بعد قيام الحجة
عليه كما قال تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا وقال رسلا مبشرين ومنذرين
لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وقال كلما القي فيها فوج سالهم خزنتها
الم ياتكم نذير قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء وقال تعالى
فاعترفوا بذنبهم فسحقا لاصحاب السعير وقال تعالى يا معشر الجن والانس الم
ياتكم رسل منكم يتلون عليكم اياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا
على انفسنا وغرتهم الحيوة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين وهذا
كثير في القران يخبر انه انما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة وهو
المذنب الذي يعترف بذنبه وقال تعالى وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين
والظالم من عرف ما جاء به الرسول او تمكن من معرفته ثم خالفه واعرض عنه
واما من لم يكن عنده من الرسول خبر اصلا ولا تمكن من معرفته بوجه وعجز
عن ذلك فكيف يقال انه ظالم الاصل الثاني ان العذاب يستحق بسببين احدهما
الاعراض عن الحجة وعدم ارادة العلم بها وبموجبها الثاني العناد لها بعد قيا
مها وترك ارادة موجبها فالاول كفر اعراض والثاني كفر عناد واما كفر الجهل
مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها فهذا الذي نفى الله التعذيب
عليه حتى تقوم حجته بالرسل الاصل الثالث ان قيام الحجة يختلف باختلاف
الازمنة والامكنة والاشخاص فقد تقوم حجة الله على الكفار في زمان دون
زمان وفي بقعة وناحية دون اخرى كما تقوم على شخص دون اخر اما لعدم
عقله وتمييزه كالصغير والمجنون واما لعدم فهمه كمن لا يفهم الخطاب

ولم يحضره ترجمان يترجم له فهذا بمنزلة الاصم الذي لا يسمع شيئا ولا يتمكن من التفهم
وهو احد الاربعة الذين يدلون على الله بالحجة يوم القيمة كما تقدم حديث
الاسود ابن سريع الاصل الرابع ان افعال الله عز وجل تابعة لحكمته التي لا يخل
بها سبحانه وانها مقصودة لغاياتها المحبوبة وعواقبها الحميدة وهذا الاصل
هو اساس الكلام في هذه الطبقات التي عليه ينبني مع تلقي احكامها من نصوص
الكتاب والسنة لا من اراء الرجال وعقولهم ولا يدري قدر هذا الكلام في هذه
الطبقات الا من عرف ما في كتب الناس ووقف على اقوال الطوايف في هذا المباب
وانتهى الى غاية مرامهم ونهاية اقدامهم والله سبحانه الموفق للسداد الهادي الى
الرشاد واما من لم يثبت حكمة ولا تعليلا ورد الامر الى محض المشية التي ترجح
احد المثلين على الاخر بلا مرجح فقد اراح نفسه من هذا المقام الضنك واقتحام
عقاب هذه المسايل العظيمة وادخلها كلها تحت قوله لا يسال عما يفعل وهو الفعال
لما يريد وصدق الله وهو اصدق القايلين لا يسال عما يفعل لكمال حكمته وعلمه
ووضعه الاشيا مواضعها وانه ليس في افعاله خلل ولا عبث ولا فساد يسال عنه
كما يسال المخلوق وهو الفعال لما يريد ولكن لا يريد ان يفعل الا ما هو خير ومصلحة
ورحمة وحكمة فلا يفعل الشر ولا الفساد والجور وما خلاف مقتضى حكمته لكمال اسمايه
وصفاته وهو الغني الحميد العليم الحكيم

فصل الطبقة الثامنة عشر

طبقة الجن وقد اتفق المسلمون على ان منهم المومن والكافر والبر والفاجر
قال تعالى اخبارا عنهم وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرايق قددا قال
مجاهد يعنون مسلمين وكافرين وقال الحسن والسدي امثالكم فمنهم قدرية
ومرجية ورافضة وقال سعيد ابن جبير الوانا شتى وقال ابن كيسان شيعا وفرقا
ومعنى الكلام اصنافا مختلفة ومذاهب متفرقة ثم قيل في اعراب الاية ومنا

دون

في الطبقة ١٧
بلغ

٤١

دون ذلك اي ومنا قوم دون ذلك فحذف الموصوف واقام صفته مقامه كقوله تعالى
وما منا الا له مقام معلوم اي من له مقام معلوم وكقوله ومن الذين هادوا سما
عون للكذب وكقوله من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه اي فريق
يحرفون الكلم وكقوله وعلى اظهر القولين ومن الذين اشركوا يود احدهم
اي فريق يود احدهم قال الشاعر ٭ فظلوا ومنهم دمعه سابق له ٭
٭ واخرى يذري دمعه العين بالهمل ٭ اي ومنهم من دمعه وقوله كنا طرايق
قددا بيان لقوله منا الصالحون ومنا دون ذلك اي كنا ذوي طرايق
وهي المذاهب واحدها طريقة وهي المذهب والقدد جمع قدة كقطعة وقطع
وزنا ومعنى وهي من القد وهو القطع وقيل المعنى كنا في اختلاف احوالنا مثل
الطرايق المختلفة في اختلافها وعلى هذا فالمعنى كنا كطرايق قددا وليس شي
واضعف منه قول من قال ان طرايق منصوب على الظرف اي كنا في طرايق مختلفة
كقوله كما عسل الطريق الثعلب وهذا مما لا يحمل عليه افصح الكلام وقيل المعنى كانت
طرايقنا طرايق قددا فحذف المضاف واقام المضاف اليه مقامه وقال تعالى اخبارا
عنهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فالمسلمون الذين امنوا بالله ورسله منهم
والقاسطون الجايرون العادلون عن الحق قال ابن عباس هم الذين جعلوا
له اندادا يقال اقسط الرجل اذا عدل فهو مقسط ومنه واقسطوا ان الله يحب المقسطين
وقسط اذا جار فهو قاسط واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وهذه قد تضمنت
هذه الايات انقسامهم الى ثلاث طبقات صالحين ودون الصالحين وكفار وهذه
الطبقات بازا طبقات بني ادم فانها ايضا ثلاثة ابرار ومقتصدون وكفار فالصا
لحون بازا الابرار ومن دونهم بازا المقتصدين والقاسطون بازا الكفار وهذا
كما قسم سبحانه بني اسرايل الى هذه الاقسام الثلاثة في قوله وقطعناهم في الارض

بما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك فهولا الناجون منهم ذكر الظالمين وهم
خلف السو الذين خلفوا بعدهم ولما كان الانس اكثر من الجن واتم عقولا ازدادوا
عليهم بثلاثة اصناف اخر ليس شي منها للجن وهم الرسل والانبيا والمقربون فليس
في الجن صنف من هولا بل غايتهم الصلاح وذهب شذوذ من الناس الى ان فيهم
الرسل والانبيا محتجين على ذلك يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم وبقوله تعالى
واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القران فلما حضروه قالوا انصتوا فلما
قضي ولوا الى قومهم منذرين وقد قال تعالى رسلا مبشرين ومنذرين وهذا قول
شاذ لا يلتفت اليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وايمة الاسلام وقوله
تعالى الم ياتكم رسل منكم لا يدل على ان الرسل من كل واحدة من الطايفتين بل اذا كانت
الرسل من الانس وقد امرت الجن باتباعهم صح ان يقال للانس والجن الم ياتكم رسل
منكم ونظير هذا ان يقال للعرب والعجم الم يجيكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم فهذا
لا يقتضي ان يكون من هولا رسل ومن هولا، وقال تعالى وجعل القمر فيهن نورا وليس
في كل سما اسما، واما قوله تعالى ولوا الى قومهم منذرين فالانذار اعم من الرسالة والاعم
لا يستلزم الاخص قال تعالى فلولا نفر من كل فرقة منهم طايفة ليتفقهوا في الدين
ولينذروا قومهم فهولا نذر وليسوا برسل قال غير واحد من السلف الرسل من الا
نس واما الجن ففيهم النذر قال تعالى وما ارسلنا من قبلك الا رجالا نوحي اليهم من اهل ح
القرى فهذا يدل على انه لم يرسل جنيا ولا امراة ولا بدويا واما تسميته تعالى الجن
رجالا في قوله وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فلم يطلق عليهم
الرجال بل هي تسمية مقيدة بقوله من الجن فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم
في الرجال عند الاطلاق كما تقول رجال من حجارة ورجال من خشب ونحوه ح

فصل وقد اتفق المسلمون على ان كفار الجن في النار وقد دل على ذلك

القران

القران في غير موضع كقوله تعالى ولكن حق القول مني لاملان جهنم من الجنة والناس
اجمعين وقوله لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين فملوها منه وبكفار
ذريته وقال تعالى ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار وقال تعالى
حكاية عن مومنهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا
واما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وقال تعالى ولقد ذرانا لجهنم كثيرا من الجن والا
نس وقال تعالى فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس اجمعون ان المخلص بالشيا
طين من ذريته فهم داخلون في عمومه وبالجملة فهذا امر معلوم بالاضطرار من دين
الاسلام وهو يستلزم تكليف الجن بشرايع الانبيا ووجوب اتباعهم لهم فاما
شريعتنا فاجمع المسلمون على ان محمدا صلى الله عليه وسلم بعث الى الجن والانس وانه يجب
على الجن طاعته كما يجب على الانس واما قبل نبينا صلى الله عليه وسلم فقوله تعالى ادخلوا
في امم قد خلت من قبلكم من الجن والانس في النار يدل على ان الامم الخالية من ح
كفار الجن في النار وذلك انما يكون بعد اقامة الحجة عليهم بالرسالة وقد دلت
سورة الرحمن على تكليفهم بالشرايع كما كلف الانس ولهذا يقول سبحانه في اثر كل اية
فباي الا ربكما تكذبان فدل ذلك على ان السورة خطاب للثقلين معا ولهذا
قراها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن قراة تبليغ واخبر اصحابه انهم كانوا
احسن ردا منهم فانهم جعلوا يقولون كلما قرا عليهم فباي الا ربكما تكذبان لا
لا نكذب بشي من الايك ربنا فلك الحمد ولما كان ابوهم هو اول من دعا الى معصية
الله وعلى يده حصل كل كفر وفسوق وعصيان فهو الداعي الى النار وكان اول من يكسى
حلة من النار يوم القيمة يسحبها وينادي واثبوراه واتباعه من اولاده وغيرهم
خلفه ينادون واثبورهم حتى قيل ان كل عذاب يقسم على اهل النار يبدا به فيه ثم يصل اليهم

فصل واما حال مومنيهم في الدار الاخرة فجمهور السلف والخلف على

انهم في الجنة وترجم على ذلك البخاري رحمه الله في صحيحه فقال باب ثواب الجن وعقابهم
لقوله تعالى يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم اياتي بخسا نقصانا
قال مجاهد وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا قال كفار قريش الملايكة بنات الله وامهاتهم
سروات الجن قال الله تعالى ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون ستحضر للحساب ثم ذكر
حديث ابي سعيد اذا كنت في غنمك وباديتك فاذنت بالصلاة فارفع صوتك بالنداء
فانه لا يسمع مدى صوت الموذن جن ولا انس ولا شي الا شهد له يوم القيمة قال ابو سعيد
سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا ما ذكره في الباب وقد ذهب جمهور الناس
الى ان مومنهم في الجنة وحكي عن ابي حنيفة وغيره ان ثوابهم نجاتهم من النار واحتج
لهذا القول بقوله تعالى حكاية عنهم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به يغفر لكم من
ذنوبكم ويجركم من عذاب اليم فجعل غاية ثوابهم اجارتهم من العذاب الاليم واما
الجمهور فقالوا مومنهم في الجنة كما ان كافرهم في النار ثم اختلفوا فاطلق اكثر الناس
دخول الجنة ولم يقيدوه وقال سهل ابن عبد الله يكونون في ربض الجنة يراهم المومنون
من حيث لا يرونهم فهذه مذاهب الناس في احكامهم في الاخرة واما احكامهم
في الدنيا فاختلف الناس هل هم مكلفون بالامر والنهي ام مضطرون الى افعالهم على
قولين حكاهما ابو الحسن الاشعري في كتاب المقالات له فقال واختلف الناس في
الجن هل هم مكلفون ام مضطرون فقال قايل من المعتزلة هم مامورون منهيون
وقد امروا ونهوا وهم مختارون وزعم زاعمون انهم مضطرون قلت الصواب
الذي عليه جمهور اهل الاسلام انهم مامورون منهيون مكلفون بالشريعة
الاسلامية وادلة القران والسنة على ذلك اكثر من ان تحصى فاضافة هذا القول
الى المعتزلة بمنزلة ان يقال ذهبت المعتزلة الى القول بمعاد الابدان ونحو ذلك مما هو
من اقوال سائر اهل الاسلام وقال تعالى اولئك الذين حق عليهم القول في امم قد خلت

من قبلهم

من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين فاخبر ان منهم من حق عليه القول
اي وجب عليه العذاب وانه خاسر ولا يكون ذلك الا في اهل التكليف المستوجبين
للعقاب باعمالهم ثم قال بعد ذلك ولكل درجات مما عملوا اي في الخير والشر وفو
قها ولا يظلمون شيا من اعمالهم وهذا ظاهر جدا في ثوابهم وعقابهم وانهم
كما يستحق العذاب باسائتهم يستحق الدرجات باحسانه فلكل درجات مما عملوا
فدل ذلك لا محالة انهم كانوا مامورين بالشرايع متعبدين بها في الدنيا وكذلك استحقوا
الدرجات باعمالهم في الاخرة من الخير والشر وقال تعالى وقيضنا لهم قرنا فزينوا لهم
ما بين ايديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والا
نس انهم كانوا خاسرين ومعنى الاية ان الله قيض للمشركين اي سبب لهم قرنا من
الشياطين يزينون لهم ما بين ايديهم من اللذات في الدنيا وما خلفهم من التكذيب
بالاخرة وما فيها من الثواب والعقاب وقيل عكس هذا وان ما بين ايديهم هو
التكذيب بالاخرة وما خلفهم هو رغبتهم في الدنيا وحرصهم عليها وقال الحسن ما
بين ايديهم هو حب ما كان عليه اباوهم من الشرك وتكذيب الرسل وما خلفهم
تكذيبهم بالبعث وما بعده وفي الاية قول رابع وصواب التزيين كله راجع
الى اعمالهم فزينوا لهم ما بين ايديهم اعمالهم التي عملوها وما خلفهم اعمالهم التي
هم عازمون عليها لما يعملوها بعد وكان لفظ التزيين بهذا القول اليق
ومن جعل ما خلفهم هو الاخرة لم يستقم قوله الا باضمار اي زينوا لهم التكذيب
بالاخرة ومع هذا فهو قول مستقيم ظاهر فانهم زينوا لهم ترك العمل لها والا
ستعداد للقايها ولهذا كان عليه جمهور اهل التفسير حتى لم يذكر البغوي غيره
وحكاه عن الزجاج فقال الزجاج سببنا لهم قرناء نظراء من الشياطين حتى اضلوهم
فزينوا لهم ما بين ايديهم من امر الدنيا حتى اثروه وعلى الاخرة وما خلفهم من امر

الاخرة فدعوهم الى التكذيب به وانكار البعث والمقصود ان قوله تعالى وحق عليهم القول
في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين اي وجب عليهم العذاب
مع امم قد مضت من قبلهم من الجن والانس ففي هذا ابين دليل على تكليف الثقلين وتعلق
الامر والنهي بهم وتعلق بهم الثواب والعقاب وقال تعالى ويوم يحشرهم جميعا يا معشر
الجن قد استكثرتم من الانس وقال اولياوهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض
وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله وهذا صريح
في تكليفهم فان هذا القول يقال للجن يوم القيمة فيذكر الانس استمتاع بعضهم ببعض
في الدنيا وذلك الاستمتاع هو ما بين الجن والانس من طاعتهم اياهم في معصية
الله وعبادتهم لهم دون الله ليستعينوا بهم على شهواتهم واغراضهم فانهم كانوا
يستوحون بهم ويعوذون بهم ويذبحون لهم وباسمائهم ويتولونهم من دون الله كما هو شان
اكثر المشركين من اولياء الشيطان فهذا هو استمتاع بعضهم ببعض ولهذا يقول تعالى
للملائكة وقد جمع العابدين اهولاء اياكم كانوا يعبدون قالوا سبحانك انت ولينا
من دونهم بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون فهولاء عباد الجن واولياء
الشيطان واكثرهم يعلم ذلك ويرضى به لما يناله به من النفع بمعبوده وكثير منهم
ملبوس عليه فهو يعبد الشيطان ولا يشعر وقد اشار زيد ابن عمرو ابن نفيل في
شعره الى هذا الشرك بالجن فقال ٭ حنانيك ان الجن كانت رجاهم ٭
٭ وانت الاهي ربنا ورجائنا ٭ فلهذا يقولون في القيامة ربنا استمتع بعضنا
ببعض وبلغنا اجلنا الذي اجلت لنا قال الله تعالى النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء
الله فهذا خطاب للصنفين وهو صريح في اشتراكهم في التكليف كما هو صريح في
اشتراكهم في العذاب وهذا كثير في القران ومما يدل على تكليفهم ايضا قوله تعالى
يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم يقصون عليكم اياتي وينذرونكم لقاء يومكم

هذا

هذا قالوا شهدنا على انفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا
كافرين فلما اعترفوا بانهم كانوا كافرين وشهدوا على انفسهم بالكفر دل ذلك
على تكليفهم وتوجه الخطاب اليهم وقال تعالى واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون
القران فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضي ولوا الى قومهم منذرين قالوا يا قومنا
انا سمعنا كتابا انزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي الى الحق والى طريق
مستقيم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب
اليم ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء اولئك
في ضلال مبين فهذا يدل على تكليفهم من وجوه متعددة احدها ان الله سبحانه صرفهم
الى رسوله يستمعون القران ليومنوا به ويأتمروا باوامره وينتهوا عن نواهيه
الثاني انهم ولوا الى قومهم منذرين والانذار هو الاعلام بالخوف بعد
انعقاد اسبابه فعلم انهم منذرون لهم بالنار ان عصوا الرسول الثالث انهم
اخبروا انهم سمعوا القران وعقلوه وفهموه وانه يهدي الى الحق وهذا القول
منهم يدل على انهم عالمون بموسى وبالكتاب المنزل عليه وان القران مصدق له وانه
هادي الى صراط مستقيم وهذا يدل على تمكنهم من العلم الذي تقوم به الحجة وهم
قادرون على امتثال ما فيه والتكليف يستلزم العلم والقدرة الرابع انهم قالوا
لقومهم يا قومنا اجيبوا داعي الله وامنوا به وهذا صريح في انهم مكلفون مامو
رون باجابة الرسول وهي تصديقه فيما اخبر وطاعته فيما امر الخامس
انهم قالوا يغفر لكم من ذنوبكم والمغفرة لا تكون الا عن ذنب وهو مخالفة الامر
السادس انهم قالوا من ذنوبكم والذنب مخالفة الامر السابع انهم قالوا
ويجركم من عذاب اليم وهذا يدل على ان من لم يستجب منهم لداعي الله لم يجره من العذاب
الاليم وهذا صريح في تعلق الشريعة الاسلامية بهم الثامن انهم قالوا

ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اوليا وهذا تهديد
شديد لمن تخلف عن اجابة داعي الله منهم وقد استدل بهذا انهم كانوا متعبدين
بشريعة موسى لانهم متعبدون بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم وهذا ممكن والاية
لا تستلزمه ولكن قوله تعالى يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم الاية يدل على ان
الجن كانوا متعبدين بشرايع الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم والاية المتقدمة تدل على
ذلك ايضا وعلى هذا فيكون اختصاص النبي صلى الله عليه وسلم بالبعثة الى الثقلين هو
اختصاصه بالبعثة الى جميعهم لا الى بعضهم ومن قبله كان يبعث الى طايفة مخصوصة
وايضا فقد قال تعالى عن نبيه سليمان ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ
منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير وهذا محض التكليف وقد تقدم قوله تعالى حكاية
عنهم وانا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن اسلم فاوليك تحروا رشدا واما القا
سطون فكانوا لجهنم حطبا وقد صح ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قرا عليهم القران
وانهم سالوه الزاد لهم ولدوابهم فجعل لهم كل عظم ذكر اسم الله عليه وكل بعرة علف لد
وابهم ونهانا عن الاستنجا بهما ولو لم يكن في هذا الا قوله تعالى وما كنا معذبين
حتى نبعث رسولا وقد اخبر انه يعذب كفرة الجن لكفى به حجة على انهم مكلفون
باتباع الرسل ومما يدل على انهم مامورون منهيون بشريعة الاسلام ما تضمنته
سورة الرحمن فانه سبحانه ذكر خلق النوعين في قوله خلق الانسان من صلصال كالفخار
وخلق الجان من مارج من نار ثم خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء
الايمان منهم وانكار تكذيبهم بالايه وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده
وتهديدهم بقوله سنفرغ لكم ايها الثقلان وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وانه
لعلمه بها لا يحتاج ان يسالهم عنها سوال استعلام بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم
فيوخذ بنواصيهم واقدامهم ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم وهذا كله صريح

في انهم

في انهم هم المكلفون المامورون المنهيون المثابون المعاقبون وفي الترمذي من حديث
محمد ابن المنكدر عن جابر ابن عبد الله قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على اصحابه
فقرا عليهم سورة الرحمن من اولها الى اخرها فسكتوا فقال لقد قراتها على الجن ليلة الجن
فكانوا احسن مردودا منكم كنت كلما اتيت على قوله فباي الاء ربكما تكذبان قالوا لا بشي
من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد وهذا يدل على ذكاءهم وفطنتهم ومعرفتهم بموا
قع الخطاب وعلمهم انهم مقصودون به وقوله تعالى في هذه السورة سنفرغ لكم ايها
الثقلان وعيد للصنفين المكلفين بالشرايع قال قتادة معناه فراغ الدنيا وانقضا
وها ومجي الاخرة والجزا فيها والله تعالى لا يشغله شي عن شي والفراغ في اللغة
يكون على وجهين فراغ من الشغل وفراغ بمعنى القصد وهو في هذا الموضع با
لمعنى الثاني وهو قصده لمجازاتهم باعمالهم يوم الجزا وقوله يا معشر الجن والانس
ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السماوات والارض فانفذوا لا تنفذون الا
بسلطان فيها قولان احدهما ان استطعتم ان تنفذوا ما في السموات والارض علما
اي ان تعلموا ما فيهما فاعلموه ولن تعلموه الا بسلطان اي ببينة من الله وعلى هذا
فالنفوذ هاهنا نفوذ علم الثقلين في السموات والارض والثاني ان استطعتم
ان تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من اقطار السموات والا
رض وخروجكم عن محل ملك الله وسلطانه فافعلوا ومعلوم ان هذا من الممتنع عليكم
فانكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي اين كنتم وقال الضحاك معنى الاية ان استطعتم
ان تهربوا عند الموت فاهربوا فانه يدرككم وهذه الاقوال على تقدير ان يكون
الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا وفي الاية تقدير اخر وهو ان يكون هذا الخطاب
في الاخرة اذا احاطت الملايكة باقطار الارض واحاط سرادق النار بالافاق
فهرب الخلايق فلا يجدون مهربا ولا منفذا كما قال تعالى ويا قوم اني اخاف

عليكم يوم التناد يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم قال مجاهد فارين غير معجزين
وقال الضحاك اذا سمعوا زفير النار ندوا هربا فلا ياتون قطرا من الاقطار الا وجدوا
الملائكة صفوفا فيرجعون الى المكان الذي كانوا فيه وذلك قوله تعالى والملك على ارجائها
وقوله يا معشر الجن والانس ان استطعتم ان تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا
وهذا القول اظهر والله اعلم فاذا ند الخلايق وولوا مدبرين يقال لهم ان استطعتم ان
تنفذوا من اقطار السموات والارض فانفذوا اي ان قدرتم ان تجاوزوا اقطار السموات
والارض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا وكان ما قبل هذه الاية وما بعدها يدل
على هذا القول فان قبلها سنفرغ لكم ايها الثقلان وهذا في الاخرة وما بعدها فاذا
انشقت السماء فكانت وردة كالدهان وهذا في الاخرة ايضا فان هذا خطاب لجميع الانس
والجن فانه اتى فيه بصيغة العموم وهي قوله يا معشر الجن والانس فلا بد ان يشترك الكل
في سماع هذا الخطاب ومضمونه وهذا انما يكون اذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم
الداعي وينفذهم البصر قال تعالى ان استطعتم ولم يقل ان استطعتما لارادة الجماعة
كما قال في اية اخرى يا معشر الجن والانس الم ياتكم رسل منكم وقال يرسل عليكما ولم يقل عليكم
على ارادة الصنفين اي لا يختص به صنف عن صنف بل يرسل ذلك على الصنفين معا وهذا
وان كان مرادا بقوله ان استطعتم فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع احسن اي
من استطاع منكم وحسن الخطاب بالتثنية في قوله عليكما امر اخر وهو موافقة رؤس
الاي فاتصلت التثنية بالتثنية وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما
فلا يحتمل اللفظ ارادة احدهما والله اعلم وقال ابن عباس الشواظ اللهب الذي
لا دخان فيه والنحاس الدخان الذي لا لهب فيه وقوله فيومئذ لا يسأل عن ذنبه
انس ولا جان فاضاف الذنوب الى الثقلين وهذا دليل على انهما سوا في التكليف
واختلف في هذا السوال المنفي فقيل هو وقت البعث والمصير الى الموقف لا يسالون

حينئذ

حينئذ ويسالون بعد اطالة الوقوف واستشفاعهم الى الله ان يحاسبهم ويريحهم من
مقامهم ذلك وقيل المنفي سوال الاستعلام والاستخبار لا سوال المحاسبة والمجازاة
اي قد علم الله ذنوبهم فلا يسالهم عنها سوال من يريد علمها وانما يحاسبهم عليها

فصل

فاذا علم تكليفهم بشرائع الانبياء ومطالبتهم بها وحشرهم يوم القيامة
للثواب والعقاب علم ان محسنهم في الجنة كما ان مسيئهم في النار وقد علي ذكر قوله
حكاية عن مومنيهم وانا لما سمعنا الهدى امنا به فمن يومن بربه فلا يخاف بخسا
ولا رهقا وبهذه الحجة احتج البخاري ووجه الاحتجاج بها ان البخس المنفي هو
نقصان الثواب والرهق الزيادة في العقوبة على ما عمل فلا ينقص من حسناته
ولا يزاد في سيئاته ونظير هذا قوله تعالى ومن يعمل من الصالحات وهو مومن فلا
يخاف ظلما ولا هضما اي لا يخاف زيادة في سيئاته ولا نقصا من حسناته وايضا فقد
قال تعالى في سورة الرحمن ولمن خاف مقام ربه جنتان فباي الاء ربكما تكذبان وذكر
ما في الجنتين الى قوله لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان وهذا يدل على ثواب محسنهم الجنة
من وجوه احدها ان من من صيغ العموم فيتناول كل خايف الثاني انه رتب الجزا
المذكور على خوف مقامه فدل على استحقاقه به وقد اختلف في اضافة المقام الى الرب
هل هي من اضافة المصدر الى فاعله او الى مفعوله على قولين احدهما ان المعنى ولمن
خاف مقامه بين يدي ربه فعلى هذا هو من اضافة المصدر الى المفعول والثاني
ان المعنى ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه فهو من اضافة المصدر الى
فاعله وكذلك القولان في قوله تعالى واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى
ونظيره قوله ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد فهذه ثلاثة مواضع وقد
يقال الراجح هو الاول وان المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه احدها ان
ان طريقة القران في التخويف ان يخوفهم بالله واليوم الاخر فاخوفهم به

علق الخوف به لا بقيامه عليهم كقوله تعالى فلا تخافوهم وخافون ونحو قوله ذلك
لمن خشي ربه وقوله يخافون ربهم من فوقهم ان الذين يخشون ربهم بالغيب
لهم مغفرة واجر كبير ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم وانما مدحهم بخوفه
وخشيته وقد يذكر الخوف متعلقا بعذابه كقوله يرجون رحمته ويخافون عذابه
واما خوف مقامه عليهم فهو وان كان كذلك فليس طريقة القران الثاني ان
هذا نظير قوله وانذر به الذين يخافون ان يحشروا الى ربهم فخوفهم ان يحشروا
اليه هو تخوفهم من مقامهم بين يديه والقران يفسر بعضه بعضا الثالث
ان خوف مقام العبد بين يدي ربه تعالى في الاخرة لا يكون الا ممن يؤمن
بلقائه وباليوم الاخر والبعث بعد الموت هذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين
فانه لا يؤمن بذلك حق الايمان الا من امن بالرسل وهو من الايمان بالغيب
الذي جاءت به الرسل واما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه
فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر واكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في
الدنيا لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن باحسانه واما مقام العبد بين يدي
ربه في الدار الاخرة فلا يؤمن به الا المؤمن بالرسل فان قيل اذا كان المعنى انه
خاف مقام ربه عليه في الاخرة بالجزا فقد استوى التقديران فمن اين رجحتم
احدهما قيل التخويف بمقام العبد بين يدي ربه ابلغ من التخويف بمقام الله على
العبد ولهذا خوفنا سبحانه به في قوله يوم يقوم الناس لرب العالمين ولانه
مقام مخصوص مضاف الى الله تعالى وذلك في يوم القيامة بخلاف مقام الله على العبد
فانه كل وقت وايضا فانه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به مقام
الله ولا هذا من المالوف اطلاقه على الرب تعالى وايضا فان المقام في القران والسنة
انما يطلق على المكان كقوله عسى ان يبعثك ربك مقاما محمودا وقوله تعالى كم تركوا

من جنات وعيون وزروع ومقام كريم خير مقاما واحسن نديا والمقصود ان
ولمن خاف مقام ربه جنتان من وجوه تقدم وجهان الثالث قوله عقيب
وعد فباي الاء ربكما تكذبان الرابع انه ذكر في وصف نسائهم انهن لم
ن انس قبلهم ولا جان وهذا والله اعلم معناه لم يطمث نساء الانس قبلهم انس
ساء جن قبلهم ومما يدل على ان ثوابهم الجنة قوله تعالى ان الذين امنوا وعملوا
ات انا لا نضيع اجر من احسن عملا اولئك لهم جنات عدن تجري من تح
تها ... وامثال هذه من العمومات وقد ثبت ان منهم المؤمنين فيدخلون
مان كالفرهم يدخل في الكافرين المستحقين للوعيد ولا فرق بين دخول
هم في ايات الوعد وبين دخول كافرهم في ايات الوعيد بل دخول مؤمنهم في
عد اولى من دخول كافرهم في ايات الوعيد فان الوعد فضله والوعيد
فضله من رحمته وهي تغلب غضبه وايضا فان دخول عاصيهم النار انما كان لمخا
لفة امر الله فاذا اطاع الله ادخله الجنة وايضا فانه لا دار للمكلفين سوى الجنة والنار
من لم يدخل النار من المكلفين فالجنة مثواه وايضا فقد ثبت انهم اذا اجابوا داعي
ه فقد غفر لهم واجارهم من عذابه وكل من غفر الله له دخل الجنة ولا بد وليس
فائدة المغفرة الا الفوز بالجنة والنجاة من النار وايضا فانه اذا ثبت ان الرسول
مبعوث اليهم وانهم مكلفون باتباعه كان مطيعهم لله ورسوله مع الذين انعم الله
عليهم [illegible] وايضا فقد اخبر سبحانه عن ملائكته حملة العرش ومن حوله انهم يستغفرون
للذين امنوا وانهم يقولون فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب
الجحيم ربنا وادخلهم جنات عدن التي وعدتهم فدل على ان كل مؤمن غفر الله له
ووقاه عذاب الجحيم فقد وعده الجنة وقد ثبت في حق مؤمنهم الايمان ومغفرة
الذنب ووقاية النار كما تقدم فتعين دخولهم الجنة والله اعلم واذا ثبت تكليفهم

وانقسامهم الى المسلمين والكفار والصالحين ودون ذلك فهم في
نحو طبقات الانس المتقدمة الا انهم ليس فيهم رسول وافضل درجات
الصالحين ولو كان لهم درجة افضل لذكروها فقد دل القران على انهم
الى ثلاثة اقسام صالحين ودونهم وكفار وزاد عليهم الانس بدرجة
النبوة ودرجة المقربين والله تعالى اعلم فهذا ما وصل اليه الاقصا من
المكلفين في الدار الاخرة وهي ثمان عشرة طبقة وكل طبقة منها لها اعلى واد
وهم درجات عند الله والله تعالى يحشر الشكل مع شكله والنظير مع نظيره
بينهما في الدرجة قال الله تعالى احشروا الذين ظلموا وازواجهم وما كانوا يعبدون
من دون الله قال الامام احمد وقبله عمر ابن الخطاب ازواجهم اشباههم و
وقال تعالى واذا النفوس زوجت روى النعمان ابن بشير رضي الله عنه
ابن الخطاب انه سئل عن هذه الاية فقال يقرن بين الرجل الصالح مع
في الجنة ويقرن بين الرجل السوء مع الرجل السوء في النار وقال الحسن وق
كل امرئ بشيعته اليهودي باليهود والنصراني بالنصارى وقال الربيع
يحشر الرجل مع صاحب عمله وفي الاية ثلاثة اقوال احدها ان تزويج النفوس
اقترانها باجسادها وردها اليها الثاني ان تزويجها اقترانها باعمالها الثالث
ان تزويج المؤمنين بالحور العين وتزويج الكفار بالشياطين والقول الا
ول اظهر والله اعلم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد سيدنا واله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا الى يوم الدين حسبنا الله ونعم الوكيل وكان الفراغ من كتابته
بحمد الله وعونه وحسن توفيقه يوم الاربعا اخر جمادى
الاخر سنة ١٢٤٢ على يد الفقير الى الله تعالى عبد الرحمن
ابن حمود غفر الله له ولوالديه ومشايخه
وشيخ الاسلام محمد ومولف الكتاب
وشيخه ومن اواهم ونصحهم



بلغ مقابلة

حسل